

القسم الأول

مقتضا البلدان النامية
النشأة والتطور

الفصل الأول

الدلالات والمفاهيم النظرية

معنى الثقافة :

ربما يكون من الأهمية بمكان في بداية هذا البحث أن نحدد ماهية الثقافة والمتقف وخواص كل منهما وعلاقته بالآخر ، وذلك حتى لا فتوه بقرائنا العزيز من أول خطوة في متاهات المفاهيم الشائنة والسطحية لمعنى الثقافة والمتقف ، والباعدة عن العرف المعاصر للدراسة والبحث العلمي ومناهجه المنطوية في علم الاجتماع والعلوم الانسانية بصفة عامة .

فالثقافة ليست هي ما نقوله وتنشره أجهزة الاعلام والنشر الرسمية والتجارية ، أو هي ما يكتبه المثقفون . وليست مفهوما مرادفا لهؤلاء المثقفين ومشروطا وجودها بوجودهم ، بحيث يجيز البعض لأنفسهم الحكم بأن أى مجتمع أو جماعة لا تتوفر لديها جماعة راقية من المثقفين والمتعلمين ووسائل الطباعة والنشر والتثقيف والتعبير الراقى من شعر ومسرح ومقالة ونحوها فانه مجتمع أو جماعة تعيش بلا ثقافة والعكس بالعكس ، كما هو المفهوم الشائع الى درجة الظن الساذج بأنه لا ثقافة بغير مثقفين . وإذا جاز القول بأن ما يصدر عن تلك الأجهزة وما يكتبه ويفهمه هؤلاء المثقفون هو جزء من الثقافة وتعبير عنها بشكل ما ، الا أن ذلك لم يكن قط هو مفهوم الثقافة أو الثقافة نفسها كما يظن الكثيرون بأى حال من الأحوال . ان الثقافة الحقيقية - كما يقول لينين - لم تنبت من مكان مجهول ولم يخترعها الناس الذين يقولون عن أنفسهم أنهم اختصاصيون فى ميدان الثقافة البروليتارية ، كل ذلك سخف وهراء ، ينبغى أن تكون الثقافة البروليتارية هي التطور المنطقي لحمل المعارف التى صاغتھا الانسانية تحت نير المجتمع الراسمالى ، ومجتمع الملاكين العقاريين(١) .

(١) فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم ، موسكو ، ص ١٢٢ . لاحظ أيضا ان كلمة بروليتاريا فى النص لا تحد قط بضمونها السياسى من المفهوم الشامل لمعنى الثقافة ، فى الى جانب مدلولها السياسى الذى عرفت به كثيرا تحمل مدلولاً اجتماعياً عيقى الدلالة ، لأنها توازى كلمة (شعبى) تماما ، ولذلك فان مدلول الثقافة البروليتارية تعنى ثقافة الشعب الأكثر عمومية وشمولا ، وهى الثقافة الحقيقية وليس ثقافة فئة أو طبقة اجتماعية بعينها .

فالثقافة بمفهومها الأكثر شمولاً ووفقاً للمفهوم العلمى وبأبسط تعبير محدد هى الصورة الأكثر صدقاً وارتقاء للواقع فى ذهن الانسان وأداة تنظيمه وتطويره . أو هى كما يؤكد قادة الفكر العلمى عامة ، الانعكاس الذهنى لتعامل الانسان مع الطبيعة والمادة عبر تاريخه الطويل .

وهناك الكثير من المفاهيم والتعاريف الكلاسيكية السابقة لهذا التعريف العلمى الشامل كانت تصدرها الكثير من الشعوب والأمم المعاصرة كتعبير عن العواطف القومية والتاريخية وبدافع الحماس لها ، بل وأحياناً كمبررات لممارسة التسلط الاستعمارى والعنصرى وادعاء التفوق النازى . أو كمحاولات أولية باهتة لتحديد ماهية هذه القضية الهامة المتعلقة بمعنى الثقافة منذ وقت طويل .

فالانجليز مثلاً يقولون على لسان ممثلهم تايلور Taylor فى تعريفه الكلاسيكى القديم للثقافة بأنها ذلك الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة والمعتقدات والقانون والأخلاق والعادات وأى قدرات وعادات يكتسبها الانسان كمضو فى المجتمع . وتلك محاولة مبكرة لتحديد معنى الثقافة . أما الألمان فانهم قد اتجهوا بدافع من الاحساس القومى بالتفوق والعراقلة التاريخية التى افترضها مفكروهم لأنفسهم ولشعبهم ، اتجهوا الى تعريف الثقافة بأنها مظهر روحى أصيل وحر للتجمع البشرى مجسداً فى شعبهم فقط ، وذلك خلاف ما يراه الأمريكان الذين لا يملكون تاريخاً يتجاوز المائتين عام حيث يعرفون الثقافة والحضارة بأنها هى ما نحن it is as فى الوقت الحاضر وأن المدنية هى ما نستعمله what we use كما يقول ماكيفر . ويرى الفرنسيون بزعامة دور كايم أن الثقافة هى ظاهرة اجتماعية محلية غير قادرة بطبيعتها على الحركة والانتقال دون أن تتغير . ويمثل وجهة النظر العربية الأكثر قدماً وكلاسيكية بالنسبة لكل ما سبق العلامة ابن خلدون حيث يعرف الثقافة والحضارة بأنها الحالة المقابلة للبداءة واللاحقة لها وهى آتية من التحضر ، أى الإقامة فى الحضر (٢) .

والثقافة بالمفهوم الأكثر جدة ومعاصرة فى نطاق العلم الاجتماعى ، وكامتداد متطور للمفهوم العلمى الشامل للثقافة السابق ذكره وبتفصيل

(٢) انظر حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة ، دراسة خاصة عن المجتمع البنى ،

أكثر ، هي مفهوم ذى شقين رئيسيين : فهى من جهة تشكل مجموع ما يباشره الفرد أو الجماعة من فعاليات وممارسات تجاه الطبيعة والواقع المادى بحكم وجوده فيه ، وما يقوم به من عملية تحويل حضارى فى تشكيل هذا الواقع وإعادة صنعه فى شكل منجزات وأدوات مختلفة ، وهى من جهة أخرى أو فى جانبها الآخر تشكل مجموعة المقاييس الذهنية والنظم والمعايير الاقتصادية والأدبية والأخلاقية فى ذهن الانسان الناجمة عن مجموع تلك الفعاليات والممارسات والمنظمة لها فى الوقت نفسه .

الأمر الذى قد نختلف فيه فى هذا الشأن مع بعض الباحثين الاجتماعيين والأنثروبولوجيين بالذات الذين ما يزالون يفصلون فصلا حادا فى تعريفهم للثقافة ، بين الجانب المادى والجانب ذهنى الى حد افتراض وجود ثقافتين مادية ولا مادية ، وذلك بناء على رأى برجوازى قديم صاغه (أوجبرون) فى هذا الشأن لم يعد صالحا بالضرورة ، ونحن لا نرى أهمية لهذا الفصل الا باعتباره تصنيفا فنيا ومنهجيا وليس تقسيما موضوعيا ، الأمر الذى يؤكد الدكتور محمد الجوهري بقوله : ان هذه التقسيمات بين العناصر المادية وغير المادية تقسيم مصطنع لا يستهدف سوى تيسير البحث العلمى ، وذلك أن الثقافة كما نعلم هى كيان واحد تربط أجزائه علاقات تفاعل كثيفة لا تسمح بهذا الفصل الا للأغراض النظرية فقط (٣) .

فإذا كان من الجائز اعتبار تشكيل الانسان للمادة وإعادة صنعه فى شكل أدوات مختلفة كتعبير وترجمة لمفاهيمه الذهنية شكل من أشكال الثقافة أو جانب منها ، الا أنه لا يمكن اعتبار المادة نفسها ثقافة قائمة بذاتها فنحزم بوجود ثقافة مادية وأخرى لا مادية ، فالمادة والفكر أو الواقع المادى والذهنى أو النظر والعمل أو الواقع والفكر ، كلها قضايا لم تعد قابلة للتجزئة ، ذلك أن النشاط ذهنى للانسان لا يبدأ من فراغ ولا يقوم بافناء المادة أو خلقها من العدم ، ولكنه يعكسها ويعبر عنها بصورة أرقى .

فالثقافة من وجهة النظر الاشتراكية العلمية والتاريخية أيضا هى النهوض الروحى الكامل للشعب فى مختلف مجالات الفكر والفن والأدب وكل ما أنتجه الانسان من خيرات مادية ، وهى تتحقق على

(٣) د. محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف

أساس النهوض المادى للشعب ، ولا يمكن الفصل بين النهوض الروحى والمادى فكلاهما يكملان بعض ويشكلان بناءً واحداً لمجتمع راق تكون فيه القوى المنتجة فى وضع يمكنها من الجمع المتناسق بين تلبية حاجاتها المادية وحاجاتها الروحية(٤) .

وهذا التعبير والارتقاء هو ما يدل على معنى الثقافة والفكر بصفة عامة ، فالناس أثناء تطوير انتاجهم المادى انما يغيرون وجودهم الحقيقى وأساليب تفكيرهم وكل ما ينتج عن هذا التفكير ، فليس وعى الناس هو الذى يحدد وجودهم ولكن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم(٥) .

فالزراع حينما يباشر لأول مرة استصلاح قطعة من الأرض فانه يقوم بمباشرة عملية ممارسة فى الواقع المادى ممثلاً فى قطعة الأرض ، وحينما يقطع بعض الأخشاب المتينة ويصنع منها محراثاً لزراعة الأرض بعد تهذيبها ويزرعها بالفعل ويقيم له مسكناً بالقرب منها ويربى الحيوانات التى يحصل منها على اللبن والجبن والأثاث .. الخ ، فان هذا الانسان الى جانب كونه يقوم من خلال كل ذلك بممارسات وفعاليات عملية تجاه الواقع المادى بحكم الضرورة والحاجة الى البقاء ، فانه يقوم فى الوقت نفسه بعملية تحويل هذا الواقع تحويلاً حضارياً وثقافياً(٦) . وإعادة صنعه بشكل أكثر فائدة وجمالاً ، وبطريقة أكثر ارتقاءً وتقدماً بالنسبة له .

وهو حينما يحدد نوع المحصول الذى يزرعه فى الأرض وطريقة طبخه وتناوله ، وحينما يختار نوع المواد الطبيعية المناسبة لبناء مسكنه « أحجار -

(٤) عبدالفتاح اسماعيل : فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار بن خلدون بيروت ١٩٧٥ ص ١٦ « شارك فيها عدد من المثقفين اليمنيين » .

(٥) راجع د. محمد على محمد : القيم الثقافية والتنمية فى كتاب دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ ص ٣٥٨ .

(٦) التحويل الحضارى للواقع من قبل الانسان يشير الى المعنى الأكثر شمولاً وعمومية لعلاقة الانسان بالطبيعة والمجتمع منذ وجد ، وهو المعنى الدال على الحضارة نفسها باعتبارها تشكل مجموع كل مظاهر تدخل الانسان فى الطبيعة وفكرته عنها والمترابطة منذ القدم وحتى الآن ، بغض النظر عن كونها ما تزال ذات طبيعة فعالة فى حياته الحاضرة أم لم تعد كذلك . بينما يشكل التحويل الثقافى للواقع أو الثقافة نفسها الجانب الحى والفعال من الحضارة فى حياة الناس الراحنة والمنظم لها ، سواء كان موروثاً من الماضى أو مما يضيفونه هم أو يصنعونه فى الحاضر ، وسنتناول الدلالات المختلفة لكل من الحضارة والثقافة والمدنية فى الصفحات التالية بشئ من التفصيل .

أخشاب - طين - أشجار ٠٠ الخ ، (٧) وكيفية بناءه وتوزيع مرافقه وحينما ينظم علاقته مع من يعيشون ويعملون معه من أفراد أسرته أو جماعته فيما بينهم أو تجاه الغير وفق مقاييس ومعايير اجتماعية معينة ، تراوح - عمل - حب - حقوق - واجبات - جزاءات - عقوبة ٠٠ الخ ، وحينما يعبر عن نجاحاته وإخفاقاته وطموحاته وآماله في كل هذا الخضم الواسع من الفعل ورد الفعل بكثير من المعاني والمفاهيم الدالة على النجاح والفشل والصح والخطأ والحسن والقبح والتفاؤل والتشاؤم ٠٠ الخ ، ويصيفها جميعا في شكل حقائق ومعارف مادية وعملية حينما ومفاهيم أدبية وأخلاقية وفنية ودينية أحيانا كثيرة إنما هو يقوم من خلال كل ذلك بعملية تجريد عقل وذهنى بطريقة ما لمجموع ممارساته وفعالياته الواقعية ووضع المقاييس الذهنية الناجمة عن مجموع تلك الفعاليات والممارسات وخبرة الانسان المتراكمة عنها والمنظمة لفعله وسلوكه وتصرفاته نحوها في الوقت نفسه ، ضمن سياق تاريخي وجدلى دائم الحركة والتغير والتطور بلا توقف .

وعلى عكس ما تقوله المفاهيم المثالية والتي تريد أن تعزل الثقافة عن الواقع المادى ، فإن انتاج الخيرات المادية - كما يقول على باذيب - هو الذى يشكل قاعدة ومصدر الثقافة الروحية (٨) . ويمكن اعتبار التعريف المقتضب والمحدد الذى صاغه الدكتور محمد الجهرى حديثا هو أكثر التعريفات دلالة على المعنى العلمى للثقافة ، فقد حددها من وجهة نظر الانثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع المعاصر بأنها : هى البيئة الثانوية التى من صنع الانسان ، أى كل ما صنعه الانسان للتعامل مع البيئة الطبيعية (التى تعد البيئة الأولية) من عناصر مادية وروحية على السواء (٩) .

نخلص من كل ذلك الى أن الثقافة بالمعنى الشامل والمحدد هى : الفعل المباشر للانسان فى الواقع وما ينجم عنه من أداة أو فكرة تعمل مباشرة على تنظيم هذا الفعل والوعى به وزيادة نموه أكثر فأكثر فى الوقت الحاضر .

الدلول العلمى للحضارة والثقافة والمدنية :

وبعد أن انتهينا من مسألة ايضاح تعريف ومدلول المعنى العلمى

(٧) د. دورسون : نظريات فى الفولكلور المعاصر ، ترجمة الدكتور محمد الجهرى ، الدكتور حسن الشامي ، دار الكتب الجامعية القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٠ .

(٨) على باذيب : فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ١٩٧٥ ص ١٠٥ .

(٩) د. محمد الجهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ١٩٧٨ ص ٨٩ .

للثقافة فى حدود ما يسمح به حيز هذا البحث ويحقق غرضه ، نجد أنه من الضرورة توضيح مدلول مصطلحات أخرى ذات علاقة جوهرية بمصطلح الثقافة وهما مصطلحي الحضارة والمدنية ، وذلك قبل الدخول فى صميم موضوع هذا البحث الذى سيدور أساسا حول ظاهرة المثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة .

ونظرا لما هو معروف عن هذه المصطلحات مجتمعة من مفاہيم ومذاهب ووجها نظر فلسفية واجتماعية وتاريخية شديدة التعقيد والتشعب والتباين الى هذا الحد أو ذاك وعلى نحو لا يسمح باستعراضها أو حتى مجرد الإشارة إليها هنا ، والذى قد يكون القيام بشئ من هذا القبيل لا يعدو مجرد كونه فعل من قبل تحصيل حاصل بل هو تصرف قد يخرج فى جوهره عن موضوع هذا البحث وهدفه الأساسى . الا أن ما نحرص عليه فى نطاق خدمة موضوع بحثنا وتحقيق تكامله النظرى والموضوعى من جهة ، ويساعد القارئ العزيز على تفهم كل أبعاده بوضوح من جهة أخرى ، هو أننا سنقوم فى هذه الفقرة بتقديم لمحة سريعة ومركزة عن مدلول مصطلحي الحضارة والمدنية وعلاقتهما بمصطلح الثقافة الذى سبق تحليله ، وذلك فى ضوء مجمل المفاهيم والمذاهب ووجهات النظر الفلسفية والاجتماعية والتاريخية الشائعة فى هذا الصدد ، وبرؤية أكثر حداثة لا تخلو من الاجتهاد والاضافة الجديدة ، دون اللجوء الى التفاصيل والمقدمات وعرض وجهات النظر التقليدية التى لا يطبقها موضوع بحثنا كما سبقت الإشارة ، والتى يستطيع القارئ أن يجدها فى عشرات ومئات المجلدات الخاصة بهذا الأمر ، عوضا عن كونها بالرغم من ذلك لم تقدم بعد حلا علميا ناجزا لهذه المسائل المعقدة فى حياة الانسان وتاريخه وفكره .

(١) الحضارة

إذا جاز لنا القول بتعريف محدد لمعنى « الحضارة » بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى فى ضوء ما قيل أو كتب أو ما يقودنا اليه جهدنا الذهنى والعقل من خلال ما يفعل أو يقال أيضا فهو القول : بأن معنى الحضارة ومدلولها الواسع يتجسد فى كل مظاهر تدخل الانسان فى الطبيعة وتحويلها عبر التاريخ ، وما ينبج عن هذا التدخل والتحويل من فكر ومعرفة متجددة بلا انقطاع ، انها امتداد وجود الانسان خارج ذاته فى كل زمان ومكان .

وبذلك فإن الحضارة تشكل الإطار الأكثر شمولاً واستيعاباً لنشاط الإنسان وإنجازاته المادية والذهنية منذ فجر التاريخ القديم ، وما يحدثه في الوقت الحاضر ، وما قد يحدثه في المستقبل أيضاً . فاشعال النار وزرع البذور واستئناس الحيوان وركوب البحر منذ فجر التاريخ قد شكلت البدايات الأولى لمظاهر تدخل الإنسان في الطبيعة ومحاولة تحويلها لأجله منذ القدم ، كما أن كل مجموع أفكاره الصحيحة والخاطئة عنها هي انعكاس لفعله وتدخله فيها من جهة وتعبير عن رغبته العميقة في تفسيرها وتحويلها لأجله بطريقة ما من جهة أخرى . وإنسان الحاضر لا يختلف كثيراً عن إنسان الماضي إلا في حدود نسبية ، حيث أنه بالرغم من زيادة فاعلية تدخله في الطبيعة وتحويلها لأجله وزيادة نموه وتراكم أفكاره الصحيحة عنها ، إلا أنه ما تزال له طموحاته غير المحدودة في التدخل في شئونها وتحويلها لأجله أكثر فأكثر ، وما يزال عليه أن يكتشف الكثير من أفكاره الخاطئة عنها ويصححها ويضيف إليها أفكاراً جديدة ، كما أن إنسان المستقبل سوف لن يخرج كثيراً عن هذا المسار إلا بحدود نسبية .

ومن بين مجموع هذه التراكمات والتحويلات والاضافات يتجسد المدلول الحضارى لتاريخ الإنسان. ووجوده الحضارى أيضاً الممتد خارج ذاته والمستمر في كل زمان ومكان ، والذي يتفرد به عن بقية الكائنات الأخرى بمقاييس لا تدرك أو نجارى بسهولة .

والحقيقة أن المدلول السابق لمصطلح (الحضارة) بقدر ما أنه يوحي بالشمول شبه المطلق لممارسات الإنسان وتفكيره ووجوده إلا أنه شديد الوضوح وبارز الدلالة من الناحية الموضوعية واللغوية معاً ، أكثر من أى تعريف أو مدلول آخر عن هذه القضية ، كما أن البحث عن أى جانب من جوانب حياة الإنسان في نطاق هذا المدلول الحضارى ، كالحب أو الجمال أو العلم بما في ذلك الثقافة والمدينة يصير أمراً بديها وأكثر قبولاً ، فكون الإنسان يبحث عن أى شيء أو يصنع أى شيء أو يفكر في إنجاز أى شيء في نطاق مدلول وجوده الحضارى الشامل هو الأمر الذى يبدو أكثر بدهة وقبولاً ، موضوعياً ولغوياً مما لو أراد أن يصنف كل ذلك أو بعضه ويمارسه في نطاق السياسة أو الدين أو مجرد تشابه الأحداث التاريخية وحدها .

فإذا كان المدلول السابق لكلمة « حضارة » قد تميز بهذا الشمول والعمومية لمظاهر نشاط الإنسان العمل والذهنى إلى هذا الحد في الماضي والحاضر والمستقبل وفيما يشبه عملية الاستيعاب المطلق لمدلول وجوده

فما الذى سيبقى اذن للحديث عنه كثقافة أو مدنية فى حياة هذا الانسان وتاريخه ؟؟ خصوصا اذا ما تذكرنا بأنه من الملاحظ أن المدلول الاصطلاحي لكل من الثقافة والمدنية هما من أشد جوانب حياة الانسان اقترابا وتشابها بالمدلول الموضوعي والاصطلاحي السابق لكلمة « حضارة » الى حد التداخل الشديد واحلال أى من هذه المصطلحات الثلاثة محل الآخر لدى أوساط عديدة من المفكرين والفلاسفة ، أو الاستغناء بأحدهم للدلالة على البقية ، الى حد انعدام القدرة على التمييز بين دلالة كل منهم على حدة فى كثير من الأحيان (١٠) .

لذلك فقط رغبتا جادين فى هذا الجزء من هذه الدراسة فى التركيز على محاولة تبين المدلولات الاصطلاحية والموضوعية لمصطلحات الثقافة والمدنية ، وعلاقة كل منهما بالآخر وبمصطلح الحضارة السابق تحليله .

(ب) الثقافة

فالثقافة فى ضوء المدلول السابق للحضارة يمكن النظر إليها باعتبارها الجانب الحى والفعال من الحضارة والذى لم يفقد وظائفه المباشرة بعد ، والمثلة فى مختلف أنماط الفعل والسلوك والتفكير السائد بين الناس حاليا ، والمنظم لحياتهم والحائز على درجة معقولة من التقبل من جانبهم . وحتى نوضح بسهولة دلالة هذا التعريف لمصطلح الثقافة باعتبارها الجانب الأكثر فعالية من الحضارة فى الوقت الحاضر ، فى مقابل الجوانب الأقل فعالية وتأثيرا فى حياة الانسان الحاضرة والتي تتضمن المعنى الأكثر دلالة واتساعا لمعنى الحضارة ، فاننا سوف نضرب مثالا حيا لتوضيح هذه القضية من خلال المقارنة بين الهرم الأكبر ومعبد الكرنك من جهة ، والمسجد أو الكنيسة من جهة أخرى ، كرموز للسلوك الدينى وأماكن بنيت أساسا لممارسة هذا السلوك وأداء شعائره المختلفة ، حيث يمثل المسجد والكنيسة مثلا ظاهرة ذات دلالة ثقافية بالمعنى المشار اليه سابقا فى نطاق الوجود الحضارى الشامل للانسان ، باعتبار أن المسجد والكنيسة يمارس كل منهما وظيفته المادية والمعنوية المباشرة التى بنى من أجلها ، ويتميز سلوك الانسان نحوهما بالجدية والالتزام ، باعتباره سلطة قائمة تستوجب الطاعة والاذعان لما تقضى به هذه الرموز الدينية ، وذلك على خلاف الهرم أو معبد الكرنك الذى كان يمارس مثل هذه الوظيفة والفاعلية المباشرة فى حياة الانسان فى يوم

من الأيام ولا تقل أهميته ولا تختلف شكلا ومضمونا عن المسجد أو الكنيسة في الوقت الحاضر إلا في حدود نسبية ، إلا أنه « أى الهرم » قد فقد كل تلك الوظائف والفعاليات المباشرة تماما وصارت علاقتنا به اليوم هامشية إلى أبعد الحدود « مجرد مكان للنزهة واسترجاع ذكريات التاريخ وقراءة أحداثه ، فالمسجد والكنيسة والنادي والسينما ونظام المرور ظواهر ثقافية ، وإهرام مصر ومعابدها القديمة وبرج بابل وسد مازب وقصر الحمراء وأخبار غرناطة ، ظواهر أكثر التصاقا بالمضمون الحضارى التراكمى الأكثر شمولاً والتي لم يعد لها أى تأثير مباشر فى حياتنا إلا بصورة غير مباشرة فى أحسن الأحوال .

وقس على ذلك السفن الشراعية القديمة بسفن البحار الحديثة ، وإيقاد شمعة الحطب للاضاءة فى الماضى ، بمصابيح الكهرباء فى الوقت الحاضر ، وعربة الخيل بالسيارة والطيارة .. الخ ، إلى ما لا نهاية . وهكذا أشياء وجدت منذ وجود الإنسان ولعبت أدواراً ووظائف هامة فى حياته ثم تختل عن تلك الوظائف المباشرة لتشكل البعد التراكمى الغير مباشر فى تاريخ الإنسان ووجوده الحضارى الأكثر شمولاً ، وحلت محلها أشياء جديدة فى الوقت الحاضر أكثر تطوراً ، وتمارس فعاليات ووظائف أكثر تعقيداً فى حياة الإنسان وسلوكه لتشكل ما نقصده بالجانب الثقافى من الحضارة أو الثقافة نفسها فى إطار المفهوم الحضارى ، وهذه الأشياء قد تتخلى حتماً عن دورها هذا ووظيفتها هذه فى المستقبل ، لتأخذ مكانها على هامش الحياة مفسحة المجال أمام أشياء أكثر جدة وتطوراً وفعالية فى حياة الإنسان ، ضمن عملية دياكتيكية جدلية مستمرة لا تتوقف .

(ج) المدنية

يمكن النظر إلى المدنية فى نطاق المدلول الحضارى الشامل أيضاً باعتبارها « المسافة التى تشكل نقاط التفاعل والاحتكاك المتجدد بين الإبداع الإنسانى الجديد والاتباع الثقافى السائد فى مرحلة زمنية وتاريخية معينة ، والتى تبدأ بأحداث الأشياء الجديدة لأول مرة من جهة والمحاولات الأولى لتطبيق مدى صلاحيتها ومدى تقبل الواقع الاجتماعى لها وقدرته على التكيف معها من عدمه ، أنها مرحلة التهجين الأولى لأحداث الأشياء الجديدة من خلال تطوير الأشياء القديمة أو الإضافة إليها ، وإجراء التعديلات وعمليات الاختبار والتجارب الأولى لمدى صلاحيتها فى الواقع المادى وتناسبها مع الواقع الاجتماعى وتقبله لها من جهة أخرى ، وبمجرد أن تثبت هذه الأشياء أو بعضها

- مادية كانت أو معنوية - صلاحيتها فى الواقع وقبولها من قبل أفراد المجتمع واستقرارها فى تفكيرهم وتطبيقها فى سلوكهم وممارستهم فانها تكون بذلك قد تحولت من عناصر مدنية الى عناصر ثقافية ملزمة اجتماعيا .

فارتداء البنطلون وحلاقة شعر الذقن عند الرجال والميكرو جيب عند النساء وحتى خروجهن سافرات الى العمل والحياة العامة كلها كانت وحتى مرحلة ليست بالبعيدة أبدا فى واقعنا العربى مثلا ، أمورا ذات حساسية بالغة ، ودار حولها الجدل المرير على مستوى الواقع والفكر ابتداء من أشد المواقف رفضا مرورا بأكثرها ميلا الى مجرد التردد والحذر والمحاذرة الذهنية وحتى أشدها تطرفا بوعى وبدون وعى . وتلك هى فترة أو مرحلة ما نقصده بتيار المدنية أو بالمدنية نفسها بالنسبة لوجود الأشياء وتطورها ، أو ما يعرف « بالموضة » بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، أو الصدمة الأولى للمدنية حيث ما تلبث مثل هذه الأمور أن تشق طريقها نحو الاستقرار والتقبل أكثر فأكثر فى صميم الحياة الاجتماعية والثقافية بعد أن تتعرض لبعض التعديلات من مجتمع لآخر الى هذا الحد أو ذاك ، ويصبح الخروج عليها هو الأمر الذى يستحق العقوبة الاجتماعية . وقس على ذلك استخدام ساعة اليد وأنبوبة البوتاجاز وتناول الطعام على السفرة قعودا على الكراسى والميكروفونات فى المساجد الخ .

العلاقة الجدلية بين مدلول كل من الحضارة والثقافة والمدنية :

فى ضوء ما سبق يمكن أن نلاحظ بوضوح أن المدنية هى الحيز أو المسافة الممتدة بين ما يبدهه الانسان وينتجه أو يقدم اليه لأول مرة لكى يتعرف عليه ويلتزم به فى حياته الجديدة كمدنية ، وبين ما هو يعرفه ويلتزم به أصلا « كثقافة » . وأن الثقافة هى الحيز أو المسافة التى تبدأ من هذه النقطة « نقطة الاعتراف بالأشياء وتقبلها والالتزام بها كإطار منظم للفكر والسلوك والعمل » ، وتنتهى عند البدء بالتخلي عن الالتزام المباشر بالوظائف المباشرة لهذه الأشياء والظواهر فى حياة الفرد والمجتمع عند تطويرها أو استبدالها بأشياء جديدة بعد نقلها الى مواقع هامشية فى حياة الانسان وتاريخه ، وأن الحضارة بأكثر دلالاتها شمولاً واتساعاً بقدر ما أنها تشكل الإطار الذى يحدث الانسان فى نطاقه كل هذا ، فهى من باب أولى تشكل البعد التراكمى الهائل الذى يجسد كل ما يحدثه أو أحدثه الانسان عبر تاريخه الطويل والاحتفاظ به كبعد اجتماعى وثقافى غير مباشر ، خصوصا ما يتصل من ذلك بالأشياء والظواهر التى تفقد وظائفها المباشرة فى إطار المدلول الثقافى الراهن للمجتمع وتشكل المدخور التاريخى والروحى والوجدانى العميق غير المباشر لوجود الانسان وتصرفاته المباشرة .

فالذى فكر فى ايقاد أول مصباح زيتى لمكافحة الظلمة من حوله قد باشر حدثا حضاريا من حيث كونه قد تدخل فى شئون الطبيعة الأصلية ، الا أن هذا الفعل فى تلك اللحظة كان ما يزال أيضا يشكل ظاهرة مدنية من حيث كونه شيئا جديدا كان ما يزال على مخترعه وكل من حوله أن يقيم هذا الفعل ويفكر فى مدى جدواه من عدمه بالنسبة لهم ، فاذا ما قبلوا به فانهم ملزمون بتعلم بعض المعارف الأساسية عن تكوينه وكيفية استخدامه والتعامل معه (كيف يشعلونه ، ومتى ، وما هى المخاطر المترتبة على سوء الاستخدام ٠٠ الخ) وبذلك يتحول من ظاهرة مدنية خاضعة للتجربة والعرض والطلب جائزة القبول والرفض الى ظاهرة ثقافية واجتماعية ملزمة وجزء لا يتجزأ من التنظيم الاجتماعى وضروراته .

وحينما جاء المصباح الكهربائى كشكل أكثر تطورا فى تدخل الانسان فى شئون الطبيعة واكتشاف قوانينها لأجله فانه قد مر بنفس الخطوات التى مر بها المصباح الزيتى منذ البداية حتى صار ما نعيشه اليوم ظاهرة حضارية فى الأساس وثقافية فى الوظيفة والفاعلية المباشرة فى حياة الناس فى الوقت الحاضر وجزء لا يتجزأ من التنظيم الاجتماعى وضرورات وجوده الملحة .

وبينما كان مصباحنا الكهربائى الجديد هذا آخذ فى التحول من ظاهرة مدنية الى ظاهرة ثقافية كان مصباحنا الزيتى القديم ذاك آخذ فى التخلي عن مهامه ووظائفه وفعالياته المباشرة فى حياة الناس فيما يشبه عملية تناسب عكسى منظم ودقيق ، حتى صار اليوم على هامش الحياة الاجتماعية تماما ، بعد أن كان فى نقطة ارتكازها ، وصار اضافة جديدة فى المذخور التراكمى الهائل لتاريخ الانسان ووجوده الحضارى والروحى الممتد فى الماضى وغير المباشر فى الحاضر ، هناك حيث سفينة الشراع والغاس الحجرى والتقاط الثمار وعبودية الأرض والانسان ، وعلى هذا فقس كل الماضى وما هو آت .

ومن خلال كل هذا وبرؤية هادئة ومتعمقة نستطيع القول بأن المصطلحات الثلاثة « الحضارة والثقافة والمدنية » هى ذات دلالات موضوعية فى الواقع ويمكن القبول بها نظريا وعمليا وليست مجرد مصطلحات لغوية يمكن احوال بعضها محل البعض الآخر أو الاستغناء ببعضها عن بعض أو تحميلها من المعانى والدلالات ما لا صلة لها به ، انسياقا وراء توجهات ايدولوجية أو قومية أو سياسية وعنصرية مفرضة بعيدة عن العلم ، كما كان شائعا فى الماضى وما يزال .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن العلاقة التى تربط بين هذه القضايا الأساسية هى علاقة دياكتيكية وجدلية مترابطة وشديدة الوضوح وبالغة الدلالة تاريخيا وعلميا . ولنتتبع الحركة الجدلية للأشياء والظواهر فى هذا الصدد وهى تعبر من الواقع الى ذهن الانسان حيث تتشكل بصورة أرقى وتتجسد بفعله فى الواقع من جديد فى شكل أشياء وأفكار جديدة هى ما نطلق عليه المدنية أو مرحلة المدنية للأشياء ، حينما تقدم للمجتمع لأول مرة لكى يتعرف عليها ويتذوقها ويختار منها ما يناسبه كأطر ومقاييس جديدة لحياة جديدة بدلا عن أشياء قديمة ينبغى عليه التخلي عنها ، ثم ما تلبث هذه الأشياء الجديدة نفسها التى قبل بها المجتمع كأطر ومقاييس جديدة لحياة جديدة أن تشكل الاطار والمدلول الثقافى للمجتمع بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى سبقت الإشارة اليه . ونظرا لأن عمليات انعكاس الواقع فى فكر الانسان بصورة أرقى وتجسيد هذا الفكر فى الواقع من خلال عمليات الابداع والانتاج بما نطلق عليه حاضـر الأشياء المدنية أو مرحلة المدنية للأشياء التى يتحول النافع منها أيضا الى اطار الثقافة أو مرحلة الثقافة للأشياء ، هى عمليات دياكتيكية وجدلية مستمرة ومتجددة لا تتوقف ، نظرا لكل ذلك فإن عناصر الثقافة أو الأشياء فى مرحلة الثقافة لم تكن قط بمنجى من عملية التحول التاريخى والجدلى هذه ، حيث يضطر بعضها أو مجموعها الى التخلي عن دوره الثقافى المباشر فى تنظيم وتقنين حياة المجتمع طال الوقت أم قصر مفسحة الطريق أمام عناصر ثقافية جديدة ، وتحول بدورها الى موقع التراكم الهامشى الهائل غير المباشر فى حياة الانسان وتاريخه ، والذي يكون ما نعينه بالمدلول الأكثر شمولاً لمعنى الحضارة والبعـد التاريخى والروحى والوجدانى العميق لوجود المجتمع غير المباشر فى الوقت الحاضر ، والذي يظل بدوره يسهم اسهاما جوهريا فى تطوير وابداع أشياء وأفكار جديدة بطريقة مباشرة وغير مباشرة فى أغلب الأحيان .

وهكذا يظل كل شئ يدور فى دائرة دياكتيكية وجدلية حية ابتداء من الأفكار الأولية التى يعكسها الواقع فى ذهن الانسان بشكل أرقى ويجسدها فى انتاج أشياء وأفكار جديدة (المدنية) ثم ما تلبث هذه الأشياء والأفكار أن تصير ذات وظيفة وفعالية مباشرة وأساسية فى حياة المجتمع وتنظيم شئونه (الثقافة) ، وحينما توجد بدائلها أو نقائصها الجديدة الأكثر تطورا فانها ما تلبث أن تزيجها وتحل محلها وتؤول هى الى هامش الواقع الاجتماعى التراكم عبر التاريخ (الحضارة بأوسع دلالتها) وتظل تسهم اسهاما حيويا

بالطرق المباشرة وغير المباشرة فى اثارة أفكار جديدة تؤدى بدورها الى انتاج أشياء جديدة وهكذا وهكذا .

وهذه الدائرة الحية لم تكن حركتها سلبية (مغلقة) كما تجمع على ذلك كل الفلسفات المثالية والبرجوازية والرجعية بشكل أو بآخر ، والتي يمكن تلخيص محتواها من خلال التذكير بالمعادلات السابقة التى تقول بأن كل شئ يسير وفقا لمبدأ « الولادة ثم الحياة فالموت ثم الحياة من جديد » على الطريقة البوذية والبرهمانية الهندية ، أو أن كل شئ قد سبق فعله فى عالم الغيب واننا نقوم بعملية احساس وتذكر لما يسمح به لنا عالم الغيب هذا من الأشياء التى نحتاجها فنجسدها بشكل مؤقت فى شكل أشياء ملموسة نستعملها حيث ما تلبث بعد وقت قصير حينما تنتهى صلاحية استعمالها أن تعود الى عالمها الغيبى حيث توجد ضمانات وجودها الحقيقى ك مجرد احساسات غيبية ، وتفارق تجسدها المادية المؤقتة لنقوم نحن بعملية تذكرها من جديد اذا ما سمح لنا بذلك وبشكل ما ، وذلك على حد تعبير « باركلى » كبير المثاليين ورائد فلسفتهم الذى ألغى وجود الموضوع واكتفى بالاحساس والتذكر من قبل القوى الغيبية كهوية للوجود برمته . (١٠)

كما ان هذه الدائرة الحية لحركة الأشياء ليست كما تدعى الفلسفات الرأسمالية والبرجوازية الوسيطة والمعاصرة مجرد حركة تلقائية وعشوائية للأشياء غير محددة الاتجاه أو الهدف كما يقول الوضعيون والوظيفيون ، والتى ان جاز للانسان التعرف على قوانين حركتها الطبيعية والاجتماعية الا انه ليس من حقه أن يتدخل فى شئونها أو تنظيمها وتوجيهها ، لأنها بحكم طبيعتها أقدر منه على تنظيم شئون نفسها بنفسها ولأن ذلك يتجاوز قدرة الانسان وامكانياته . مفسحة بذلك مكانا للغيب والميتافيزيقا من جهة والفوضى والظلم والاستغلال من جهة أخرى ، فالحروب والأمراض والعقم - كما يقول مالتوس - تحل مشكلة زيادة السكان ، والاستغلال والظلم والمراباه تحل مشكلة توزيع الثروة .. الخ .

وهذه الحركة ليست أيضا كما يفسرها البرجوازيون والوظيفيون المعاصرون ، مجرد أشياء تتحرك بانتظام لاداء وظائف محددة في دائرة مغلقة وثابتة الايقاع والتوازن تلقائيا ، كما هى عليه فى الوقت الحاضر ودون حاجة الى تغيير ، وأنه اذا ما حدث أى تأزم أو اختلال أو انهيار فى هذا التوازن الوظيفى المزعوم ، فانه ما يلبث أن يفرز العوامل الكفيلة باعادة هذا التوازن من جديد كما هو ، واذا جاز للانسان أن يتدخل فى كل هذا فهو تدخل من أجل المحافظة على أدائها الوظيفى وزيادة فعاليتها وحفظ توازنه واستمراره وليس من أجل تغييره .

فالأزمات الاقتصادية والحروب الدولية التى يتسبب فيها النظام الرأسمالى والتفكير البرجوازى والنازى ويختل معها توازن الواقع القائم هى مجرد حالات عارضة ومؤقتة ما تلبث أن تزول ويستعيد توازنه الوظيفى من جديد ، كما أن الدعوة الى انتهاء السيطرة الاستعمارية واستغلال الاحتكارات الدولية الرأسمالية للمجتمعات النامية والمتخلفة وتحقيق تحررها الاقتصادى والاجتماعى هو فى نظر هذه الفلسفة عمل تخريبى للنظام الوظيفى القائم للعالم وافساد توازنه واستقراره ، بينما يكون الفعل المعاكس الذى يعمل على المحافظة عليه وزيادة تنشيطه وفعاليتيه هو الذى من المفروض أن يتم باعتبار أن هذا التنظيم (المشوه) لم يكن كما ترى هذه الفلسفات الرأسمالية والاستعمارية مجرد تنظيم اقتصادى واجتماعى فحسب ولكنه نظام الطبيعة الأمثل الذى أهدته السماء الى الأرض .

ولقد أبدى كل من دوركايم ، وماكس فيبر ، وهيدل برج ، وبارسونز وباريتو ، وسمارت ، وغيرهم اهتماما بالغاً بدراسة النسق الرأسمالى فى نظرياتهم السوسيولوجية فى محاولة منهم للتصدى للاشتراكية العلمية وتبرير الأوضاع القائمة فى المجتمعات الغربية من خلال التركيز على مفاهيم النظام والنزعة الوضعية والتساند الوظيفى(١١) .

وأخيرا نلتقى بأكثر نماذج الفلسفات البرجوازية انحطاطا وسذاجة والتى لا ترى فى كل مظاهر نشاط الانسان وفعاليتيه فى الواقع والطبيعة أكثر من مجرد المحافظة على البقاء والبحث المستميت عن مصلحته وفائدته وربحه بصفته « فردا » فكل شئ مفيد ومربح هو حيلة تستحق العمل بها والدفاع عنها ، حتى « الكذب » والقتل والخرافة والشعوذة ، قد يرقى

(١١) د. محمد نبيل السمالوطى : علم اجتماع التنمية ، دراسة فى اجتماعيات العالم الثالث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الاولى ١٩٧٤ ، ص ١٧٢ .

كل منها الى مصاف الحقائق المقدسة طالما وأن في مقدورها تحقيق ربحا أو مصلحة فردية أو طبقية بذاتها حتى ولو كانت هذه المصلحة على حساب الغير وعلى أنقاض بقائهم نفسه ، وهذا هو منطق الفلسفة البرجماتية السائدة في الولايات المتحدة الامريكية والتي لا تخفى مقاصدها (١١) .

وعلى خلاف كل هذه الفلسفات الرجعية والبرجوازية الرأسمالية معا ترى النظرية العلمية والتاريخية أن مجموع حركة الأشياء في الطبيعة والمجتمع لم تكن قط عملية « تناسخ وحلول » كما يرى انرجميون ، ولا احساسات خيانية وميتافيزيقية كما يرى المثاليون ، ولا هي مجرد حركة عشوائية في دائرة مغلقة أو مجرد كائنات وظيفية سلبية تقوم بتنظيم وإدارة واقع انساني واجتماعي غير قابل للتغيير ، أو مجرد تعبير عن فكرة منحطة وسلبية لمعنى الفائدة والربح الفردى كما ترى كل الفلسفات البرجوازية والاستعمارية المشار اليها آنفا من وضعية ووظيفية وبرجماتية .

فعلى خلاف كل هذا ترى المادية التاريخية أن مجموع حركة الأشياء في الطبيعة والمجتمع تشكل عملية تغيير وتطوير وتحول جدلى مستمر لا يتوقف وفي اتجاه صاعد ومتجدد على الدوام ، وأن دور الانسان وموقعه في هذه العملية هو دور ايجابي وحاسم الى أبعد الحدود ، ومن خلاله وبفعله تتحول حركة الأشياء في الطبيعة من حركة تلقائية بطيئة ولا واعية الى حركة واعية وأكثر سرعة وفائدة لأجله .

فحركة الأشياء من الواقع الى ذهن الانسان بشكل معين ثم اعادتها الى الواقع ليست مجرد حركة سلبية ، ذلك أنه بالرغم من وجود الأشياء وقوانينها في الطبيعة ولم تكن بحاجة الى ذهن الانسان أو الى أى قوة غيبية لكى توجد أو تستمر فى وجودها وحركتها وتطورها المستمر ، الا أن ادراك ذهن الانسان لها واكتشافها والوعى بها شيئا فشيئا وتدخله المباشر فى شئونها وفرض نفسه كحلقة جديدة فى عملية التحول التاريخي ، بعد أن حقق هذا الذهن الانساني درجة عالية من التطور والارتقاء بالقياس الى بقية الحيوانات الأخرى ، هذا التطور الهائل قد أحدث ثورة كبيرة فى حياة الانسان والطبيعة معا ، فحركة الأشياء وقوانينها فى الطبيعة صارت بفضل ذلك تعمل بمقاييس أكثر سرعة وانتظاما وحيوية نتيجة وعى الانسان بها وتحويلها من حركة تلقائية بطيئة لا واعية الى حركة واعية وأكثر سرعة وتنظيما وفائدة لأجله أكثر فأكثر .

(١١) مكرر) راجع حمود العودى : التراث الشعبي وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، وبالذات الفصل الثانى بصفة عامة ، مركز الدراسات اليمنية ، ١٩٨٠ .

وفي نطاق هذا المفهوم النظري والعلمي والمنهجي الواسع لفهم الأشياء وتفسيرها وبفضله أيضا كانت محاولتنا السابقة لتفسير معنى ومدلول كل من الحضارة والثقافة والمدنية ومحاولة الخروج بهذه المصطلحات ذات الدلالات الهامة في حياة المجتمع من دائرة الميتافيزيقا والاجتهادات العشوائية الغامضة والمتناقضة والتي ما تزال تفسد الوعي بها بطريقة صحيحة حتى الآن في كثير من الأحيان الى دائرة العلم والفهم التاريخي والجدلي الصحيح .

وبالرغم من الحيز الكبير نسبيا الذي شغله الحديث في هذه القضية التي لا تدخل مباشرة في صميم هذه الدراسة ، الا أنني راض كل الرضا عن هذا الفعل نظرا لما لهذا الأمر من أهمية قائمة بذاتها وذات صلة مباشرة بموضوع هذا البحث ، وذلك حتى تتاح فرصة أكبر لتناول هذه القضية في دراسة قائمة بذاتها وتحليل أكثر عمقا وشمولا لهذا الموضوع .

المدلول العلمي والطبقي لفئة المثقفين :

لقد سبق وأن ذكرنا بأن الثقافة ليست هي ما تقوله أو تنشره أجهزة الاعلام والنشر الرسمية والتجارية أو ما يقرأه ويكتبه المثقفون ، واشترط وجودها بوجودهم وبيننا المفهوم الحقيقي والعلمي لمعنى وماهية الثقافة وعلاقتها بالحضارة والمدنية . لكن من هم المثقفون ومن هو المثقف نفسه وما هي علاقته بالمفهوم السابق للثقافة ؟؟

ربما يكون من باب التيسير للوصول الى تحديد معنى وماهية المثقف على أساس موضوعي وعلمي لو قمنا في البداية بعملية « تسطيح » أفقى لهذا المفهوم قياسا على غيره من المفاهيم المائلة وشبه المائلة ، كالطبيب والمهندس والفنان ... الخ . فاذا كان الطبيب هو من تتوافر لديه معلومات أكثر من الطب وقدرة أفضل على مكافحة المرض في حياته وحياة الآخرين ، وأن المهندس هو أيضا من تتوفر لديه معلومات أكثر عن علم الهندسة ومهارات أكثر في تصميم واقامة المباني وغيرها ، الا أن الطبيب ليس هو الطب نفسه وليس هو المريض أو المرض أبدا ، انه فقط يعرف عن هذه الأشياء أفضل من غيره بحد نسبى لا أكثر ، وبما يتجاوز حدود احتياجه المباشر اليها ، أو هو على الأصح مثقف فيها أكثر من غيره . والأمـر كذلك بالنسبة للمهندس والفنان وراعى الأغنام ... الخ .

والمثقف بالمعنى الاجتماعى والسياسى الشامل هو ضرب من هذا القبيل ، هو شخص أو أشخاص تتوفر لديهم معلومات ومفاهيم نظرية

مجردة عن حياة الناس وعاداتهم وعلاقتهم وتاريخهم وأنشطتهم المكونة لثقافة المجتمع الحقيقية ، ويحدود نسبة أيضا ربما أكثر من الناس أنفسهم وبصورة أكثر تنظيما وتعقلا الى حد ما ، الا أنهم « أى هؤلاء المثقفين » ليسوا هم الناس أنفسهم ولا عاداتهم وتقاليدهم وعلاقاتهم وطموحاتهم وكل ما يفعلونه أبدا ، انهم مجرد صورة جزئية لها وتعبير هامشي مجرد عنها بشكل ما ، انهم مثقفون فى الثقافة وليسوا هم الثقافة نفسها .

فاذا كان من أهم وأبرز خواص الثقافة كونها تشكل المقاييس والأطر المرجعية المختلفة لفعل الفرد والواجبة الالتزام والمراعاة فى سلوكه ضمن جماعة فان المثقف بالرغم من ادراكه نسبيا لمجموعها ومعلوماته عنها الا أنه وكل ما يدركه أو يعيه من ثقافة أفراد المجتمع لا يشكل قط فى مجموع مصدر الزام واجب المراعاة بالنسبة له فى سلوكه وتصرفاته وأفعاله الا فى حدود ما يتطلبه وجوده المباشر ضمن جماعة كائى فرد آخر عادى وغير مثقف فيها وبفوارق نسبية بسيطة ، سواء ان كانت هذه الجماعة تشكل فئة أو طبقة قائمة بذاتها داخل المجتمع بحكم انتمائه اليها .

فالمثقف البرجوازى فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا قد تجده شغوفاً ومهتماً بقراءة افلسفة الماركسية ، لكنها لا تشكل بالنسبة له مصدر الزام يذكر فى فعله وسلوكه اذا ما قيست بمصادر ثقافته الحقيقية فى نطاق مجتمعه أو طبقته ، بل ان اهتمامه ذلك قد تكون له دوافع عكسية تماما ، وهو الاهتمام بقصد الرفض وامتلاك القدرة على المواجهة المضادة ، تماما كما يفعل المتخاصمون فى الحرب الساخنة ، أو رجال المخابرات واجهزة القمع والارهاب السياسى فى كل مكان ، حيث يهتمون جدا بالاطلاع العام على شئون الغير ومعرفة دقائق أسرارهم الشخصية والفكرية بقصد التمكن من احباطها اذا كانت لا تنسجم مع ميولهم وليس بقصد تبنيها كإطار لأفعالهم وسلوكهم . كما أن الرجل المسلم قد يقرأ ويتثقف كثيرا فى الديانة المسيحية أو اليهودية أو البوذية ويكتب ويحاضر عنها فى الجامعات ومعاهد التعليم لكنها لا تعنيه فى شئ من الناحية العملية والتطبيقية والعكس صحيح .

والأكثر من كل هذا أنه حتى فى حدود الأمة الواحدة أو المجتمع الواحد نجد أن المثقف قد يلم ويضيف الى معلوماته الكثير من المفاهيم والنماذج الثقافية المختلفة أو المتناقضة فى مجتمعه ، فيقرأ عن ثقافة الفقراء والأغنياء ورجال الدين واللصوص وعن العدل والظلم والفن .. الخ .

بصفته مثقفا فحسب وبغض النظر عن كونه ينتمى اجتماعيا وطبقيا لاي من هذه النماذج أو لا ينتمى ، حيث يكون قد حدد سلفا نوع الجماعة أو الطبقة التى ينتمى اليها جوهريا ويلتزم بثقافتها وفكرها كإطار لسلوكه وتصرفاته العملية ، وذلك إما بحكم الوراثة والمولد والظروف المحيطة بمراحل تكوين حياته الأولى ، أو من خلال قنوات لاحقة سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية . فالشرائح الاجتماعية أو الفئات الاجتماعية بهذا المفهوم بما فيهم المثقفون هم - كما يقول الدكتور الجوهري - عبارة عن تجمعات داخل طبقات معينة. فعلا ولكن حجمها يتجاوز حدود تلك الطبقة ، ومن الممكن أن ينتمى أبناء شريحة معينة الى طبقات مختلفة ، أى أن علاقتهم بوسائل الانتاج ليست واحدة . وهذه الشرائح لا تلعب دورا مستقلا فى الصراع الطبقي الدائر فى المجتمع ، ولا تكون لها أى فاعلية الا بالتعاون مع الطبقات الرئيسية الأخرى فى المجتمع (١٢) .

فحينما يكون الأصل الاجتماعى والطبقي للشخص فلاحا مثلا أو عاملا أو اقطاعيا أو رأسماليا أو غير ذلك من الجماعات الهامشية فى المجتمع بحكم الوراثة والمولد والتربية فى نطاق هذه الطبقة أو الجماعة أو تلك (١٣) . فانه يكتفى فى الظروف العادية اضافة الى هذا الموروث بالقيام بعملية اندماج وتمثل ثقافى وفكرى عميق لثقافة الطبقة أو الفئة التى وجد نفسه فيها وارتبطت مصالحه ووجوده بها ، والتى تشكل اطاره ومرجعه الاجتماعى

(١٢) د. محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ١٩٧٨ ،

ص ٢٢٥ .

(١٣) ان الفرق بين الطبقة والفئة أو الطبقات الأساسية والفئات الهامشية فى المجتمع هو فرق أو فروق بقدر ما أنها ثانوية وجزئية الا أنها مهمة ومن الضرورى ادراكها . فالطبقة هى الوجود الاجتماعى لقطاع أفقى معين من الناس فى المجتمع يتميز ويختلف عن قطاع أفقى آخر من حيث المضمون الاقتصادى بالدرجة الأولى وما ينجم عنه منميزات أخرى ثقافية وفكرية وسياسية وسلوكية ، كطبقة العمال والفلاحين والرأسماليين والبرجوازية . أما الفئات الاجتماعية فهى عبارة عن جماعات هامشية موزعة رأسيا بين مختلف الطبقات ولا تتميز بالقدرة على البقاء والاستقلال بذاتها كالتبقات الأساسية ، وهى اما فئات وجماعات مؤقتة كالتلبة والجنود « تحت الخدمة العسكرية » أو جماعات تعيش على هامش الطبقات الأخرى أو ملحقة بها بصورة مباشرة وغير مباشرة ، مثل الأطباء والمهندسين والمعلمين والمثقفين أنفسهم ، ورجال الدين ، وكذلك جماعات اللصوص والمجرمين والمنحرفين .. الخ . انظر فى ذلك تفاصيل أكثر فى كتاب دراسات فى التنمية الاجتماعية د. محمد الجوهري وآخرون - دار المعارف المصرية - الطبعة الثالثة ١٩٧٧م ص ٢٢٦ الى ٢٢٩ . كما أننا سنتناول هذه النقطة بتفصيل أكثر فى أماكن لاحقة من هذه الدراسة .

الحق ، وهو لا يتجاوز باهتماماته حدود ثقافة هذه الطبقة الا حينما تتاح له فرصة أكثر في التعليم ويوسع اهتماماته واطلاعانه الاجتماعية والسياسية بصفته مثقفا ، اما بقصد الاطلاع والتثقف الشخصي وفقا للمثل القائل « العلم بالشئ خير من جهله » أو بدافع التعرف على ما عند الغير والافادة منه في الدفاع عن ثقافته الحقيقية وزيادة نموها في مواجهة الاطر والثقافات الأخرى التي قد تتعارض وتتناقض مع ثقافته وتكوينه الطبقي ، وهذه هي القاعدة العامة في علاقة المثقفين بطبقاتهم الاجتماعية وغيرها من الطبقات الأخرى في المجتمع .

أما الاستثناء فهو أن المثقف من أى طبقة أو جماعة ومن خلال ما يقوم به من عملية تجاوز وقفز مستمر خارج نطاق طبقته وثقافته الأصلية قد يتأثر بمضمون ومحتوى نموذج ثقافي آخر غير نمودجه الأصلي الذي وجد فيه لاي سبب من الأسباب ، كما يفعل بعض أفراد الطبقة البرجوازية والأرستقراطية حينما يتبنون مواقف الطبقة العاملة وفكرها ، أو طبقة الفلاحين ويدافعون عنها بصدق الى هذا الحد أو ذاك ، أو حينما يحدث العكس تماما ، خصوصا في نطاق البلدان النامية والمتخلفة وحديثة التكوين المعاصر ، حيث نجد - كما يقول عدد من الباحثين السوفييت - أن الوسط الاجتماعي الواحد في البلد النامي يفرز رجالا يتبنون الماركسية ويدافعون عنها كما يفرز زعماء لمنظمات رجمية عاتية(١٤) . حيث ينسوخ المثقف عن هذا النموذج الطبقي أو ذاك ويحاول دمج نفسه في نموذج آخر ، وهو قد ينجح وقد لا ينجح ، وقد يتنقل ويجرب أكثر من نموذج على هذا النحو .

وعلى العكس من ذلك فانه يكاد يكون من المستحيل والنادر جدا أن نجد حالة اجتماعية واحدة من غير هؤلاء المثقفين تقوى على انتشار نفسها دفعة واحدة من واقعها الاجتماعي والطبقي الأصلي الى واقع اجتماعي وطبقي آخر باختيارها تحت أى ظرف من الظروف وبنفس الطريقة ما لم تجبر على ذلك بالقوة الثورية التي تلغى وجودها الاقتصادي كخطوة أولى للقضاء على وجودها الاجتماعي والثقافي بمرور الوقت أو الاحتياج الى زمن أطول للقيام بعملية عكسية ، لأن ذلك لو حدث فرضا فانه سيكون أشبه باختيار سمكة البحر لأن تغادر المياه دفعة واحدة لتحيا في سلام مع حيوانات اليابسة .

(١٤) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان النامية ، ترجمة الدكتور داود حيدو ومصطفى الدباس ، الطبعة الثانية ، منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٤ ، ص ٣٥٨ .

فنحن لا نستطيع أن ننتظر من فلاح أمدى بسيط أو عامل منجم مسحوق أن يتمثل ويمارس الحياة الأرستقراطية وثقافتها فوراً وبغير مقدمات طويلة ، أو أن ، ننتظر العكس أيضاً ، كما يفعل المثقفون من كلا الطرفين بسهولة أكثر . وهكذا لا تنتهى سوء الرؤية وعدم الوضوح الذى يتحدث عنه « بوتو مورو » فى هذا الصدد وعما إذا كان المثقفون هم أقل تأثراً من الصفوات الأخرى بأصولهم الطبقية والاجتماعية نتيجة لطبيعة نشاطاتهم وأسلوبهم فى الحياة كما يقول فحسب (١٥) بل وأكثر من غيرهم بما لا يقاس على الانتقال من طبقة لأخرى .

نخرج من كل هذا الى حقيقة أن المثقف والمثقفين بصفة عامة هم بالنسبة للطبقات والفئات التى ينتمون اليها أشبه ما يكونوا بالأجرام الخارجية الدائرة فى محيطها ، ويشكلون نفاط التماس وقنوات الاتصال بين هذه الطبقات وبعضها ، وإذا ما اضطرت طبقة ما الى افتقاد بعض مثقفىها من جراء عملية التناقص الى طبقات أخرى - كحالات استثنائية كما سبقت الإشارة - فانها قد تعوض هذا الخسران بعلمية جذب مماثلة . وهكذا ننتهى الى أن المثقفين ليسوا طبقة أو طبعة مستقلة كما يقال عنهم فى أحسن الأحوال بقدر ما أنهم تعبير هامشى عن كل الطبقات والمصالح المتعارضة أو المتناقضة فى المجتمع ، انهم - كما يقول لينين - يجسدون ويعبرون عن تطور المصالح الطبقية والتكتلات السياسية فى المجتمع بأسره ، وذلك بأوعى وأحزم وأدق شكل ممكن للتجسيد والتعبير (١٦) .

وإذا كانت قليلة هى الكتابات والدراسات العلمية التى تناولت فئة المثقفين بصفة عامة حتى الآن فإن الأكثر ندرة هو التحليل الجدلى والموضوعى المتعمق لهذه الفئة الاجتماعية الهامة على هذا النحو ، خصوصاً ما يتعلق بمثقفى البلدان النامية والمتخلفة بالذات .

فكثير من الكتابات الحديثة الجيدة التى تتناول الطبقات والفئات الاجتماعية بصفة عامة لا تسقط من حسابها فئة المثقفين بل تتناولهم بصفة جزئية وهامشية وبأسلوب التحليل الوصفى لا أكثر ، فمجموعة من العلماء السوفييت يقدمون لنا فى مصنف جيد وذو أهمية علمية كبيرة عن التركيب

(١٥) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهري وآخرون ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٩١ .
(١٦) لينين : المؤلفات ، المجلد السابع ، ص ٣٤٣ .

الطبقي للبلدان النامية ، يقدمون لنا وصفا تحليليا لفئة المثقفين فى هذه البلدان هو فى تقديرنا أفضل ما كتب عن هذه الفئة الاجتماعية حتى الآن وفى هذه البلدان بالذات فى المرحلة الراهنة ، من حيث نشأتهم ودورهم فى النضال الوطنى وتذبذب مواقفهم الاجتماعية والطبقية من مرحلة لأخرى ٠٠ الخ ٠ الا أنهم لم يحددوا بدقة طبيعة القوانين الاجتماعية والمجدية التى تتحكم فى طبيعة تكوين هذه الفئة طبقيا وتاريخيا ٠ فهم يقولون مثلا : ليس هناك ضرورة لأن يعكس المثقفون مصالح الطبقة التى خرجوا منها ٠٠ وان مستوى ثورية المثقفين لم يكن دائما متماثلا ٠٠ وان الدور القيادى للمثقفين فى الثورة الوطنية الديمقراطية ذو طابع مؤقت ومحدود تاريخيا ٠٠ الخ ، الا أنهم لم يحددوا لنا بدقة لماذا يحدث كل هذا ؟؟ وكيف؟؟ (١٧) أما بعض الكتابات البرجوازية الأوربية فانها تذهب الى موقف أكثر تعاسة وتشويها لمعنى ووظيفة هذه الفئة وغيرها من الفئات الاجتماعية كالصفوات والجماعات العسكرية الأولجارية والأرستقراطيات المختلفة ومحاولة احلالها محل الطبقات فى تفسير المجتمع وتطوره التاريخي وذلك فى مواجهة التفسير العلمى للبقطات (١٨) ٠

وفى ضوء كل ما سبق واطافة اليه نستطيع أن نحدد الخواص والمميزات العلمية الخاصة بالمثقفين وطبيعة دورهم فى :

١ - ان المثقفين بصفة عامة يكونون فئة أو شريحة اجتماعية موزعة رأسيا أو عموديا بين مختلف الطبقات الأساسية فى المجتمع ، وليسوا طبقة أو ممثل طبقة بذاتها ، وهم أقل الفئات الاجتماعية انسجاما وتماسكا ، بحكم المهنة أو الظروف أو المرحلة كما هى الحال بالنسبة للطلبة والمجندين أو الأطباء ورجال الدين والمهندسين ٠٠ الخ (١٩) ٠

٢ - ان المثقفين بالرغم من أنهم يشكلون لسان حال كل الطبقات والمصالح المتفقة أو المتعارضة والمتناقضة فى المجتمع ويعبرون عنها دائما ، الا أنهم ليسوا أكثر قدرة من هذه الطبقات نفسها على الصمود والتضحية

(١٧) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان النامية ، ١٩٧٤ ، ص ٣٥٨ و ٣٩٧ و ٤٠٤ ٠

(١٨) بوتومورود : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور الجوهري وآخرون - طبعة ١٩٧٨ ، ص ٣٥ ٠

(١٩) المرجع السابق ص ٩١ ٠

فى سبيل مصالحها الحقيقية والدفاع عنها الى ما لا نهاية أو الانابة عنها ، فهم غير جديرين بمثل هذه المهمة نظرا لأن ثقافتهم ووعيهم هو أشبه ما يكون بالخبرة المهنية والوظيفية وأبعد ما يكون عن الحس والوعى الطبقي السليم (٢٠) .

٣ - ان عملية التساقط التلقائى التى تحدث بين مثقفى الطبقات المختلفة هبوطا أو صعودا ، وبالرغم من أهميتها الكبيرة ، الا أنها تظل هى الاستثناء وليس القاعدة ، والتى لابد من تحديد ملامحها بدقة والتعامل معها بحذر .

٤ - ان أهم دور ايجابي بالنسبة لمثقفى أى طبقة سواء كانوا من أفرادها أو ممن تجذبهم من أوساط الطبقات الأخرى هو أن يساعدوا هذه الطبقة على تنمية حسها ووعيها الطبقي ويجعلونها - بحكم ثقافتهم - تعى مصالحه جيدا وتقوم بتنمية وتطويع هذه المصالح والدفاع عنها بنفسها بطريقة أفضل ، وليس ادعاء القيام بكل ذلك نيابة عنها كما يحدث غالبا .

العلاقة الجدلية بين الفئات والطبقات الاجتماعية :

لم تكن فئة المثقفين هى الفئة أو الشريحة الوحيدة التى تتميز طبيعتها وعلاقتها ببقية الطبقات الرئيسية فى المجتمع على نحو ما سبق تحليله ، ذلك أنه بالرغم من الميزات الجوهرية التى تحدد العلاقة المتميزة لفئة المثقفين ببقية الطبقات الرئيسية الا أنها ليست هى الفئة الوحيدة التى تربطها مثل هذه العلاقات والصلات المتميزة . فهناك الكثير من الفئات والشرائح الاجتماعية الأخرى التى تعيش على هامش التركيب الطبقي للمجتمع وترتبط معه بروابط جوهرية متميزة أيضا ، وليست متماثلة بالضرورة مع ذلك النمط من الصلات والعلاقات التى تربط المثقفين مع هذا التركيب الاصلى للمجتمع بل انها قد تكون على النقيض منها فى معظم الاحيان .

(٢٠) هناك فرق جوهري وأساسى بين معنى التعلم والنتقف من جهة وبين الحس والوعى الطبقي من جهة أخرى ، فالتعلم والنتقف الذى يتجسد من خلال فئة المثقفين كما رأينا هو بالرغم من أهميته يظل قضية هامشية وأداة قابلة للتداول . بينما يكون الحس والوعى الطبقي حينما يزدهر ويتقدم لا يشكل التعبير الملزم مصرىيا بمصالح الطبقات فى المجتمع والذى لا ينفصل عنها فحسب ، بل انه الانعكاس الذهني والمعنوي للوجود الفعلي للطبقات وممارستها العملية ، وستتناول هذه النقطة بتفصيل أكثر فى مكان لاحق من هذا البحث .

ولما كانت هذه الدراسة تتركز أساسا حول فئة المثقفين الا أننا سوف نتناول في هذه الفقرة نماذج من الفئات والشرائح الاجتماعية الأخرى وصنفتها بالأوضاع الطبقيّة في المجتمع بإيجاز . فاذما حاولنا النظر الى هذه الفئات من حيث الكم نجد أنها تتسع وتعدد بل وتفرع الى حد كبير وفقا لطبيعة الظروف التاريخية والاقتصادية التي يمر بها التطور الاجتماعي في هذا المجتمع أو ذاك (مجتمعات متخلفة - نامية - متقدمة) حيث توجد في كل نمط من هذه الأنماط الاجتماعية نماذج من الفئات والشرائح الهامشية التي تتناسب وطبيعة المرحلة ونوع تركيبها السياسي والاقتصادي، ففي المجتمعات النامية والمتخلفة مثلا تبرز الفئات الدينية والقبلية والسلالية والعشائرية والأرستقراطيات العسكرية والسياسية ، وفي المجتمعات المتقدمة والتي هي في طريقها الى التقدم تبرز الفئات المهنية والجماهيرية ، كالأطباء والمهندسين والحقوقيين والمثقفين والطلبة والجنود تحت الخدمة العسكرية ، وغير ذلك من المؤسسات المهنية والجماهيرية والنقابية . وهذا لا يعنى اقتصار النمط الأول من هذه الفئات على المجتمعات المتخلفة والنمط الثاني على المجتمعات المتقدمة أو التي هي في طريقها الى التقدم ، بل ان نماذج هذه الفئات والشرائح الهامشية في المجتمع غالبا ما تتواجد متداخلة في كلا المستويين ، والفروق هنا هي فروق نسبية فقط حيث يبرز النمط الأول من هذه الفئات في المجتمعات المتخلفة بشكل أقوى وأكثر فعالية ، الى درجة تضعف وتضمحل معها العلاقات الطبقيّة الحقيقية في المجتمع الى حد الظن الخاطئ من قبل التفسيرات البرجوازية والمثالية بعدم وجود نظام طبقي في مثل هذه المجتمعات وأن هذه الفئات السائدة على سطح الحياة السياسية والاقتصادية هي التعبير الوحيد للعلاقات الاجتماعية والتاريخية في المجتمع . ومما يساعد على الترويج لمثل هذه الرؤية اللا علمية هو التدني الشديد لنمط الانتاج الزراعي وانعدام الانتاج الصناعي في مثل هذه المجتمعات والذي ينجم عنه بالتالي تدني أكثر في العلاقات الانتاجية وتشويه للعلاقات الاجتماعية والثقافية بصفة عامة .

كما أن النمط الثاني من هذه الفئات والشرائح الاجتماعية (أطباء ، مهندسين ، مثقفين ، جنود ، طلبة ، حقوقيين ، صحفيين ٠٠ الخ) هو أكثر ارتباطا وبروزا في المجتمعات السائرة في طريق التنمية أو التي حققت نموها بالفعل في المجتمعات المتقدمة مع الاحتفاظ بنماذج أكثر هامشية وأقل فعالية لبقايا ورواسب فئات وشرائح النمط الأول في مجتمع تسوده علاقات طبقيّة أكثر وضوحا ، كتعبير عن حالة القوى الاجتماعية الأكثر تقدما .

التفسير التاريخي لوجود وتطور الفئات الاجتماعية :

وتبقى مسألة التفسير التاريخي لنشأة وتطور هذه الفئات ، خصوصا ما يتعلق منها بذلك الطراز أو النمط المتخلف (القبلية - العشائرية - السلالية - الدينية الوثنية - والأرستقراطيات القديمة ١٠٠٠ الخ) فهذه الفئات السلالية - الدينية - الوثنية - والأرستقراطية القديمة ١٠٠٠ الخ) فهذه الفئات المنتشرة في المجتمعات النامية والمتخلفة أكثر من غيرها يطفى وجودها على سطح الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية أيضا وتقرض علاقتها ووجودها الهامشي المشوه وكما لو كان هو التفسير الوحيد لماضي وحاضر ومستقبل المجتمعات التي تعيش فيها ، في مواجهة أى تفسير جدلي وتاريخي آخر لأوضاع المجتمع وعلاقاته الطبقية ، هذه الفئات في مجموعها ووفقا للتفسير العلمى لا تخرج عن كونها تعبير عن بقايا ورواسب طبقات وإيدلوجيات قديمة فى الماضى ، أو تجسيد لعلاقات طبقية متخلفة سائدة فى الوقت الحاضر .

فكل الذين ينتمون من هذه الفئات الى السلطة السياسية ويمسكون بزمامها من مجاميع الأولجاريات العسكرية والأرستقراطيات السياسية ، أو يفرضون سيطرتهم وملكيتهم للأرض الزراعية ومن عليها باعتبارها المصدر الأساسى للبناء الاقتصادى وغيرها من مصادر الثروة القومية للمجتمع من تجارة وموارد طبيعية وغيرها والذين قد يجمعون عادة بين كل من هذه الامتيازات فى آن واحد (السلطة والقوة والملكية) هؤلاء جميعا يجسدون حقيقة تحالف الطبقة الاقطاعية المتسلطة فى المجتمع المتخلف بكل مضامينها وأبعادها مهما قال عنهم غيرهم أو ادعوا لأنفسهم غير هذا ، وإذا كان الدكتور الجوهري يؤكد بأن هذه النظرة الماركسية تمثل أساس كل دراسة علمية لموضوع الطبقات فان ماركس يؤكد بقوة على الأساس الاقتصادى للطبقات وفكرة الصراع فيما بينها الناشئ عن تضارب مصالحها (٢١) . كما أن كل الفئات الأخرى ممن قد لا ينتمون أو لا يتمتعون بالسلطة أو الثروة أو بهما معا ويمثلون مواقع اجتماعية أكثر هامشية وأقل فعالية وتأثيرا فى مجرى الحياة السياسية والاقتصادية الراهنة كرجال الدين فى بعض المجتمعات وبعض الجماعات السلالية والعرقية والعشائرية والمذهبية ذات الأبعاد الأيدلوجية المتميزة ، ليست فى مجموعها أكثر من مجرد تعبير مشوه لبقايا ورواسب أوضاع طبقية وسياسية واجتماعية قديمة منهارة ذات طموحات

ضعيفة ومتخلفة فى الوقت الحاضر ، أو مجرد الميل الى المحافظة على وجودها
العالى وبقائها كما هى أمام المتغيرات الحديثة(٢٢) .

الفئات الاجتماعية بصفة عامة هى فى المجتمعات المتخلفة والاكثر
تخلقا اما تجسيدا مشوها لأوضاع طبقية اقطاعية متخلفة فى الوقت الحاضر ،
أو تعبيرا عن بقايا ورواسب أوضاع طبقية وسياسية وايدولوجية قديمة
منهارة . أما فى المجتمعات السائرة فى طريق النمو أو التى حققت نموها
بالفعل حيث تسود العلاقات الطبقية الأكثر وضوحا فان الفئات الاجتماعية
هى مجرد تعبير هامشى عن العلاقات الاقتصادية والطبقية السائدة بصفة
عامة وبشكل ما ، قد تختلف طبيعة هذا التعبير من فئة لأخرى ، فكما
هى الحال بالنسبة للمثقفين السياسيين فى مجتمع نامى أو متقدم حينما
يعبرون عن مختلف المصالح الطبقية المتعارضة والمتناقضة - كما سبقت
الإشارة - نجد المهندسين أو الحقوقيين أو الأطباء الذين قد تضمهم رابطة
مهنية واحدة الا أنهم لا يعبرون من خلالها عن قضية مستقلة قائمة بذاتها
بقدر ما يعبرون من خلالها عن أصولهم الطبقية وانتماءاتهم السياسية
والايدولوجية التى تعكسها . وينسحب الأمر كذلك على الفئات الأخرى
من الكتاب والمفكرين والأدباء والفنانين والصحفيين . الخ ، مع الفوارق
النسبية الواضحة من حيث الدرجة والفاعلية والحدة حيث يأتى المثقفون
السياسيون والكتاب والمفكرون فى مقدمة المجتمع .

نخلص من هذه النقطة الى أن أى مجتمع لابد وأن يتضمن بجانب
طبقاته الرئيسية نماذج لطبقات فرعية قديمة ، كنماذج الاقطاع المتبقى
فى ظل مجتمع رأسمالى ، أو فئات طبقية هامشية للطبقات السائدة كالمثقفين
والمحامين والأطباء والمهندسين ، أو بذور لنشوء طبقات جديدة كتجمعات
العمال والبرجوازية الصغيرة فى ظل مجتمع اقطاعى ، وهو الأمر الذى
قد يعترض عليه بعض الماركسيين المتزمتين ممن لا يعرفون سوى تقييم
المجتمع الى طبقتين متصارعتين ، الأمر الذى لا يتفق حقيقة والفهم الماركسى
العلمى الصحيح للطبقات والذى يؤكد وجود طبقات فرعية بجانب الطبقات
الرئيسية ، فغير صحيح - كما يقول الدكتور الجوهري - ما يذهب اليه
بعض الماركسيين من أن الماركسية لا تعرف سوى تقسيم المجتمع الى طبقتين
متصارعتين ، اذ نجد من أمثلة تلك الطبقات الفرعية ملاك الأرض أو الفلاحين

فى ظل المجتمع الرأسمالى ٠٠ ويضيف الجوهري قائلا : ان تلك الطبقات الفرعية بصفة عامة تمثل اما رواسب طبقات رئيسية عفا عليها الزمن ، أو خمائر لطبقات رئيسية سوف تتضح ملامحها وشخصيتها فى المستقبل(٢٣) .

الرؤية الاعلامية للفئات والطبقات الاجتماعية :

فى الوقت الذى تحدد فيه الرؤية التاريخية العلمية مفهومها للفئات والشرائح الاجتماعية على نحو ما سبق نجد بالمقابل أن الرؤية المثالية الاعلامية تلخص فى هذا الشأن جملة وتفصيلا فى كل ما صاغه وتصيغه النظريات والمذاهب المعادية للاتجاه التاريخى العلمى فى تفسير المجتمع وعلاقاته الطبقة(٢٤) هى رؤية برجوازية فى مبادئها رأسمالية استغلالية فى أهدافها وأغراضها رجعية ولا علمية فى مضمونها وحقيقتها .

فلقد وجدت البرجوازية الأوربية والمجتمع الرأسمالى بصفة عامة فى هذه الفئات والشرائح الاجتماعية بمختلف أنماطها ضالتها المنشودة فى خضم الصراع والعداء المستحكم للنظرية التاريخية العلمية وتفسيرها الطبقي للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك لكى تحل هذه الفئات والشرائح محل الطبقات فى تفسير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع وقراءة تاريخها بطريقة عشوائية وغير منظمة تحكمها الصدفة والنبؤات القديمة ، بدلا من اتقانون التاريخى للمجتمع . فهذه الرؤية مثلا تحل الصفوة أو النخبة السياسية محل الطبقة الحاكمة وتفصلها عن المؤسسة العسكرية ورجال الأعمال المهيمنين على الثروة فى مجتمع رأسمالى كالولايات المتحدة الأمريكية ، باعتبار أن كلا منهم يشكل فئة أو صفوة و نخبة مستقلة أو شبه مستقلة عن الأخرى ، بدلا من كونهم جميعا يشكلون تحالف الطبقة الرأسمالية المسيطرة .

كما تنظر هذه الرؤية أيضا الى كل التجمعات والنقابات المهنية والفنية بما فيها العمال والفلاحين باعتبار أن كل ذلك لا يعدو كونه مجرد فئات

(٢٣) د. محمد الجوهري وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ص ٢٢٦ و ٢٢٧ .
وانظر فى ذلك أيضا مختارات ماركس ولينين وانجلز الطبعة الألمانية - المجلد ٢٩ ص ٥٠٨ .
(٢٤) راجع تفاصيل أكثر فى هذا الشأن ، بوتومورو : الصفوة والمجتمع دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ١٩٧٨ ، ص ٣٥ وما بعدها .

وشرائع اجتماعية قائمة بذاتها ، ويقوم كلا منها بمهام وظيفية محددة فى نطاق البناء الاجتماعى السائد ، لا من أجل تغييره وتطويره بل من أجل المحافظة عليه وزيادة فعالية نظامه القائم وحفظ توازنه كما هو عليه الآن بصفة دائمة ونهائية وحمايته من الانهيار ، وبتعبير أوضح حفظ توازن النظام الرأسمالى القائم وزيادة فعالية علاقاته الاستغلالية السائدة فى الداخل والاستعمارية فى الخارج وحمايته من السقوط .

فالتطبقات الاجتماعية تختزل وفقا لهذه الرؤية الى مجرد صفوات وعبريات فردية خارقة ، والنظم المتغيرة هى مجرد أنساق وعادات اجتماعية ثابتة لا تتغير ، والصراع الطبقي هو مجرد أزمات عارضة ما يلبث المجتمع أن يتجاوزها ويستعيد توازنه السابق ، وحركة أفراد المجتمع ونشاطهم اليومي هو مجرد وظائف يؤدونها من أجل استمرار المحافظة على توازن هذا الواقع وحمايته من السقوط ، وفقا للمفهوم الوظيفي . كما أن الحقيقة الوحيدة فى هذا العالم هى - كما يرى البرجماتيون - ما يحقق ربها أفضل حتى القتل والكذب والخرافة ، أما التفكير فى المستقبل وفى ما وراء الواقع المعطى فهو - كما يرى الوجوديون - العدم الذى ينبغى الخوف منه .

فكل أصحاب هذه الفلسفات البرجوازية والرجعية المعاصرة من وضعية وبرجماتية ووظيفية ووجودية وغيرها والذين يتبنون هذه الرؤية فى تفسير العلاقات الاجتماعية والطبقية ويدافعون عنها ، هم كلهم سوية - كما يقول جازودى - يعلنون أو يتظاهرون بتجاهل المادية التى كانت فى القرن الثامن عشر كبرياء البرجوازية الصاعدة وأصبح يجرى كل شيء وكما لو كانت هذه الطبقة قد استخدمت المادية للاستيلاء على السلطة واستخدمت المثالية للاحتفاظ بهذه السلطة (٢٥) .

فالقضية الرئيسية التى تدور حولها كتابات الوظيفيين - كما يقول نيقولا تيماشيف - يمكن تحديدها على النحو التالى : ان النسق الاجتماعى (وهو اصطلاح يستخدمه الوظيفيون غالبا) يمثل نسقا حقيقيا فيه تؤدي أجزاءه وظائف أساسية لتأكيد الكل وتشبيته ، وأحيانا اتساع نطاقه وتقويته (٢٦) كما أن المشاكل والأزمات الاجتماعية - على حد تعبير بارسونز

(٢٥) روجيه جازودى : النظرية المادية فى المعرفة ، ص ٤٠٢ .

(٢٦) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع نشأتها وتطورها ، ترجمة د. محمود

عودة وآخرون - دار المعارف المصرية ، ص ٣٤١ .

Parson زعيم الوظيفية المعاصرة هي مجرد ردود أفعال لحالات مرضية عارضة تزول بزوال هذه الحالات (٢٧) ولقد جهدت الوجودية - كما يقول جارودى أيضا - لأن تجعل الخوف من المستقبل « الخوف الخاص بالبرجوازية » يشمل البشرية كلها ، فالإنسان يقف وجهها لوجه أمام العدم ، والقلق والتشاؤم هما النمط المشترك بين هذه الفلسفات جميعا (٢٨) .

هذا فيما يتعلق بتفسير الرؤية الوظيفية والبرجماتية المعاصرة وغيرها من الفلسفات البرجوازية فى المجتمعات الرأسمالية الكبرى ورؤيتها للنواق الاجتماعى ، بما فيه الفئات والشرائح الاجتماعية الهامشية واحلالها محل الطبقات .

أما اذا طلب من هذه الرؤية تفسير الأوضاع السياسية والاقتصادية الغير متكافئة بين هذه الفئات والتي صارت تشمل شعوبا وأما بأسرها والتي تجعل القلة المهيمنة أو الصفوة كما يقول عنها « باريتو وموسكا » تملك كل شيء من مصادر القوة والسلطة والثروة فى مقابل حرمان الأغلبية ممن يشكلون قاعدة الهرم الاجتماعى داخل المجتمع المحلى من جهة ، ومجموعة الشعوب النامية والمتخلفة التابعة والمحقة بهذه النظم المركزية للرأسمالية والامبريالية العالمية من جهة أخرى ، فانها تستند فى ردها على نقطتين رئيسيتين لا تخلوان من الخبث والسذاجة فى آن واحد ، الأولى ان النظام الاجتماعى القائم قد تشكل تلقائيا وبصفة نهائية بفعل قوانين اقتصادية واجتماعية وقدرية أيضا ، ولم يكن أحد من البشر قد تدخل فى الغالب ولا يجوز له أن يتدخل حتى ولو لمس فى نفسه القدرة على ذلك ، وقد انتهى فى تشكله هذا الى ما يشبه درجات سلم الصعود أو كراسى السينما أو مقاعد الأوتوبيس أو طابور الصباح فى المدرسة أو المعسكر ، وما على فئات وأفراد المجتمع الا أن يتنافسوا على مواقع المقدمات أو الوسط والمؤخرة على الأقل ، ومن لم يظفر منهم بأى من هذه المقاعد أو الدرجات أو الصفوف المتراسة أو لا يستطيع دفع ثمن ما يريده منها على الاصح فلينتظر قليلا حتى تصنع

(٢٧)

Talcott Parsons: Social structure and personality, Copyright (c) 1964 by the free press of Glencoe, U.S.A. P. 112.

وانظر تفاصيل أكثر حول نقد الوظيفية فى كتاب التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، حمود العودى ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٨٠ ، وبالذات الفصل الثانى بصفة عامة .

(٢٨) روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، ص ٤٤٣ .

مقاعد اضافية أو تتوفر مقاعد شاغرة أو يتوفر لديه الثمن اللازم ، ومن لم يقتنع بدرجة أو مقعد المؤخرة أو الوسط فليناضل للحصول على مقعد أفضل في المقدمة أو على مقربة منها(١٩) !! .

ذلك أن كل هذه السلالم والمقاعد والطوابير والمصاعد .. الخ هي مفتوحة أمام الجميع وليست حكرا على أحد ، حتى بالنسبة لمن واثتهم الفرصة للتربح على رأسها أو مقدمتها فانهم قد يتركونها مختارين أو غير مختارين اذا ما وجد من هو أقوى وأفضل وأسعد حظا منهم ، وأكثر كفاءة وقدرة وعبقرية من غيرهم .

ولقد كان « باريثو » وتلاميذه من أصحاب نظرية النخبات أو الصفوات الحاكمة ودوراتها السياسية كبديل عن الطبقات في سبيل مواجهة النظرية العلمية لما ركس هم أكثر المجتهدين تشييعا لهذه الآراء الخاصة بالفئات والصفوات ودوراتها في السلطة والدفاع عنها ، فالتاريخ « هو مقبرة الأرستقراطيات » بهذه العبارة الأدبية الشاعرة بدأ باريثو يصوغ واحدة من أهم أفكاره السياسية وهي « دورة الصفوة » على أن المتأمل لتحليل باريثو - كما يقول بوتومور - لهذه الظاهرة يتبين على الفور أن هذا التحليل لم يصل في روعته روعة أسلوبه وطريقته في الكتابة(٣٠) .

ففي مؤلفه « الأنظمة الاشتراكية » نجده (أى بارتو) يقول :
قد يؤدي الهبوط التدريجي للدورة « أى الافراد » الى تفشى عناصر الانحلال في الطبقات الحاكمة ، كما قد يؤدي الى بروز عناصر التفوق لدى الطبقات الخاضعة . وفي مثل هذه الحالة يصبح التوازن الاجتماعي غير مستقر ، بل ان أبسط حركة كفيفة بتحطيمه وقد تؤدي الهزيمة أو الثورة الى انقلابات معززة بذلك صفوة جديدة . ومؤسسة أيضا نوعا آخر من التوازن جديد .

كما أن تلميذته « ميري كولاينسكا » M. Kola Binska قد ميزت بين ثلاثة أنماط لدورة الصفوة هي : اما أفراد من المستويات الدنيا ينجحون

(٢٩) راجع تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع في كتاب س.ى. بوبوف : لقد علم الاجتماع البرجوازي المعاصر ، ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٣٠) بوتومور : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور الجوهري وآخرون ، دار المعارف المصرية - الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٦٥ .

فى الانضمام الى الصفوة القائمة ، أو أفراد من مستويات دنيا أيضا يشكلون صفوات جديدة تدخل فى صراع القوة مع الصفوة القائمة ، أو حدوث العمليتين معا (٣١) . فباريتو - كما يقول بوتومورو - يكرس كل اهتمامه لدراسة دورة الأفراد بين الصفوة واللاصفوة ، ومن ثم نجد أن اهتمامه يتحدد مباشرة نتيجة لاختياره لمشكلة « التوازن الاجتماعى » بوصفها الموضوع الأساسى لبحثه ، شأنه فى ذلك شأن الوظيفيين المحدثين (٣٢) .

وهكذا يقوم الفهم الرأسمالى لعلم الاجتماع البرجوازى بمسح المفهوم العلمى للطبقات الى مجرد فكرة للحراك الاجتماعى والمساعد الاجتماعى والشرائح الاجتماعية . . الخ (٣٣) .

ولكى تدلل هذه الرؤية التبسيطية على منطقتها المضلل هذا فانها لا تكل ولا تمل عن النفخ فى أساطير « هيلتون » صبى بار الجمعة المتشرد فى الولايات المتحدة الأمريكية الذى أصبح يملك أضخم شركة فنادق فى أنحاء العالم وتحمل اسمه . أو « أوناسيس » الصبى ماسح السيارات الذى أصبح ملك أساطيل النقل البحرى وصاحب الجزر الأسطورية فى الحسن والجمال . وماسح الأحذية الذى أصبح مليونيرا ، والذى تحدث عنه لينين مبينا حقيقة هذه التبسيطات الساذجة والمضللة فى تفسير التاريخ والعلاقات الاجتماعية ، وفساد معرفتها معرفة علمية صحيحة ، وربما يكون عثمان أحمد عثمان صبى الجراج فى مصر جديرا بأن يقدم لهذه التفسيرات السطحية مثالا حيا اذا كانت الأمثلة السابقة قد غادرتنا الى حياة ما بعد الموت !!

ذلك أن الشيء الهام فى هذا الموضوع كما يؤكد بوتومورو هو معرفة نسبة أعضاء الصفوة الذين أتوا من المستويات الدنيا ونسبة القادرين من أفراد المستويات الدنيا على تحقيق صعودا اجتماعيا ، فواقع الأمر أن ما يقدمه هذا النوع من المنهج التاريخى لا يعدو أن يكون تضخيما فى حجم

(٣١) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٣٢) نفس المرجع السابق ص ٧٥ .

(٣٣) راجع د. محمد الجوهري : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، ص ٢٢٢ و ٢٢٣

و ٢٢٧ و ٢٢٨ .

ومدى الدورة في المجتمع (٣٤) . ولقد ناقش « سي. بي. بوبوف ، C.B. Bobof فكرة الحراك الاجتماعي الرائجة في علم الاجتماع البرجوازي بصورة ساخرة ومعبرة اذ يقول : ان نظرية الحراك الاجتماعي معقدة لكي توحي للساحطين الموجودين في الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعي بفكرة مكانية الصعود الى الدرجات الأعلى والنفاذ الى الطبقات الاعلى . ونتيجة لذلك هناك فرص حقيقة أمام كل عامل في تنظيف الاحذية لكي يصبح مليونيرا ، وكل جندي يحمل في حقيبته عصا المرشالية! (٣٥) » .

فلقد اتضح من خلال الدراسات الحديثة - دحضا لهذه الاكذوبة - ان كبار الموظفين والمديرين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالطبقات العليا في المجتمع الرأسمالي ، حيث اوضحت دراسة حديثة لبوتومورو في بريطانيا عن كبار موظفي الخدمة المدنية أن ٨٤٪ منهم ينتمون الى عائلات الطبقة العليا والوسطى العليا الذين لا يتجاوز عددهم ثلاثة في المائة من مجموع السكان ، وأن أقل من ١٪ ينتمون الى عائلات العمال الصناعيين أو الزراعيين (٣٦) . كما ان « وليم ميلر ، W. Miller قد كشف في بحث عميق عن الأصول الاجتماعية لمائة وتسعين من كبار رجال الأعمال الأمريكيين خلال العشر سنوات الأولى من القرن الحالي كشف فيه أن الفكرة القائلة بأن رجل الأعمال النموذجي الناجح يأتي من الطبقات الدنيا في المجتمع هي فكرة بالية ، ذلك أن أقل من ١٠٪ من الفئة التي درسها قد ولدوا خارج حدود الولايات المتحدة وأن ١٪ فقط يمكن اعتبارهم من « فقراء المهاجرين » وأن ٨٠٪ منهم أتوا من عائلات أمريكية قديمة تزاوّل أعمالا فنية عليا أو هم أبناء أصحاب الأعمال (٣٧) . والرأى عندنا - كما يقول الدكتور الجوهري - هو أن دراسات علم الاجتماع البرجوازي تحاول تزييف الصورة عن طريق المبالغة في تقدير مدى هذا الحراك ودوره (٣٨) .

(٣٤) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ١٩٧٨ ، ص ٧٧ .

(٣٥) انظر سي. بي. بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازي ، ترجمة نزار عيون السود ، تقديم د. طيب تيزيني منشور في سلسلة الأفكار ، عن دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٣ - ص ١١٣ وما بعدها ، وبالذات ص ١٢٠ .

(٣٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، مرجع سابق ص ١٠١ .

(٣٧) نفس المرجع السابق ص ٩٥ .

(٣٨) د. محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ، الطبعة

الأولى ١٩٧٨ ، دار المعارف المصرية - ص ٢١٠ .

واذا ما سؤلت هذه الرؤية أيضا عن سبب ضرورة اقتصار مقاعد المقدمة في السلطة والثروة على قلة أو صفوة محدودة من الناس على حد تعبير « موسكا » بينما تقف الغالبية الساحقة من الفئات والمجتمعات الأخرى (٣٩) اما وقوفا بلا مقاعد أو جلوسا على المقاعد الخلفية الرديئة في أحسن الأحوال ، حيث لا رؤية جيدة ولا طعام شهى ، بلا تغيير حقيقى يذكر رغم تعاقب الأجيال والقرون ، فان هذه الرؤية عموما تستند فى ردها على مبدأين شهيرين فى الفلسفة البرجوازية والرأسمالية لا يخلوان من الخبث والسذاجة معا ، فالقانون البرجوازى المقدس للعرض والطلب وغيره من الفلسفات الرأسمالية يطل برأسه فى هذه اللحظة ليقدّم التبرير المشوه لواقع مشوه أيضا ، وهو أن فرص العرض بالنسبة للملكية الاقتصادية المطلقة ومراكز السلطة السياسية محدودة جدا بطبيعتها الى درجة يكفى معها وجود طبقة أو فئة قليلة لكى تمتلك كل شئ وفئة أخرى تحكم كل شئ ، أو فئة واحدة فقط تملك وتحكم فى آن واحد ، وربما يكفى شخص واحد للقيام بهذه المهمة وتلك هى قوانين الطبيعة والاقتصاد عند المتقدمين الرأسماليين واردة القدر والغيب عند المتخلفين الاقطاعيين ، وكل ذلك فى مقابل الطلب المتعاطم عليها بغير حدود والذى يستحيل تلبيته بأى حال من الأحوال ، وهذا هو المبدأ الأول .

أما اذا سؤلت عن الأسباب التى جعلت من هذه الفئة أو القلة بالذات تفوز بامتياز القوة والسلطة والثروة هكذا دون غيرها وإلى ما لا نهاية ، فان المغالطات المضحكة والمقولات الساذجة لمحاولة نفى هذه الحقيقة والتى من طراز الحديث عن أوناسيس الأسطورة أو هيلتون أو ٠٠ أو ٠٠ الخ اذا ما افتضح أمرها أمام الحقائق العلمية والتاريخية المشار إليها سابقا ، فان هذه الرؤية لا تتردد عن اصدار النظريات والفتاوى النازية والعنصرية القبيحة لكى تتحدث من خلالها عن مبررات بيولوجية وعنصرية وسلالية خاطئة من أجل الدفاع عن هذا التنظيم السياسى والاقتصادى الدولى المشوه الذى تعانى منه معظم شعوب العالم فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

(٣٩) لابد من ملاحظة أننا لا نفرق بين الطبقات والفئات الاجتماعية الواقعة فى أسفل السلم الاجتماعى فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، وبين شعوب وأمم بأكملها فى البلدان النامية والتخلفة تعانى من الاستغلال والتبعية للطبقات الرأسمالية فى الغرب من خلال الاحتكارات الدولية والتقسيم الامبريالى لمناطق النفوذ فى العالم المتخلف ، حيث صار الكل فى ظل المتغيرات الدولية والتقنية الحديثة يرتبطون بقوانين اقتصادية على الأقل شبه موحدة ومركزة جوهريا فى عواصم الميتروبول الرأسمالية وتحت اشرافها .

حيث تعتمد هذه النظريات والفتاوى الاستعمارية القديمة الجديدة الى القول : بأن الطبيعة التي وهبت الانسان قانون العرض والطلب لكي يوازن احتياجاته الضرورية والكمالية التي لا يمكن الحصول عليها بأنصبة متساوية لكل الناس أو حتى متقاربة ، ولكي يؤدي هذا القانون مفعوله بانسجام وبصورة مقبولة وعادلة للجميع فانها « أى الطبيعة أيضا » قد جعلت من الافراد والشعوب والأمم أناسا ذوي قدرات ومواهب متفاوتة الى حد كبير ، وبما يتناسب عادة وفرص التدرج الاقتصادى والاجتماعى ، بحيث أن عوامل الندرة الزائدة فى مراكز السلطة السياسية والملكية الاقتصادية المطلقة مثلا ، تقابنها عوامل ندرة مماثلة تقريبا فى المواهب والعبقريات البشرية المناسبة لها والعكس بالعكس صحيح .

فاذا كانت قد وجدت قلة أو فئة من الناس فى هذا المجتمع أو ذاك تملك كل شئ وتحكم فى كل شئ فان ذلك لم يكن بمحض ارادتها فحسب ولكنه قدرها ايضا ، لأن الطبيعة قد منحتها دون سواها كل المؤهلات والقدرات العقلية والبيولوجية الخاصة بذلك بحدود لا تتوفر لسواها .

واذا كان يوجد عشرات الملايين من الناس والشعوب ممن لا يملكون شيئا أو لم يعد يوجد هناك شئ لكى يملكوه على الأصح ، أو لا يملكون الا الفتات فى أحسن الأحوال ، فان ذلك هو قدرهم أيضا وما يتناسب وقدراتهم العقلية والفكرية والانتاجية ، فهناك شعوب وأمم هى وحدها التى تستطيع أن تبذل الحضارة الحديثة وتبنيها ، وشعوب وأمم أخرى قد تقوى على المشاركة فى البناء الى هذا الحد أو ذاك بينما لا يعجز غالبية البشر فى الشعوب النامية والمتخلفة عن صنع الحضارة الحديثة أو حتى المشاركة فى صنعها فحسب بل انهم عاجزون حتى عن ادارة شئون أنفسهم سياسيا واقتصاديا وأنهم قد يسيئون الى حضارة العصر ويفسدونها لو تركوا وشأنهم .

بل ان هناك من الشعوب والمجتمعات من اعتبر مجرد الابقاء على حياتهم عائقا كبيرا أمام بناء الحضارة الانسانية والمجتمعات العظيمة كما يسمونها فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولقد لخص موريس دوفرليه الفكرة المشتركة لمجمل هذه النظريات العنصرية والنازية فى القول : بأنه من العسير مثلا أن يتجاوز السود البنيات القبلية البدائية ، أما الصفر فيمكن أن يرتقوا الى مستوى الدول المعقدة ولكنهم لا يستطيعون أن يعطوها صورة ديمقراطية ، ولكن ما يقدررون عليه فى أحسن الظن هو أن يبلغوا المستوى الذى كانت

عليه الأمم الأوربية فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، أما الهنود ، وعم
يمتازون بذكاء واضح ويتمتعون بمواهب فى التجارة وأعمال المصارف والنقد
« الهدام » ، فانهم عاجزون عن ممارسة وظائف الحكم والقيادة ، وعن تنظيم
سلطة سياسية ناجحة ، ولن يقدر على انشاء دول حديثة تسير سيرا ملائما
الا العرق الأبيض غير الهندى (٤٠) .

وهذه الرؤية لا تختلف فى مقدماتها ونتائجها عن الأساطير المصرية
القديمة التى كانت - كما يقول الدكتور أحمد الخشاب - تصور حكام مصر
الفراعنة الأقدمين على أنهم من طبيعة مقدسة . . ويضيف . انه ما من شك
أن هذا التصور كان يهدف الى حماية النظام العبودى الذى كان يتألف من
المجتمع المصرى القديم (٤١) كما يؤكد أيضا بأن الغزو والسيطرة السياسية
والقهر الاجتماعى والطبقى هى الأبعاد التاريخية الحقيقية لمختلف مظاهر
التفرقة العنصرية والطائفية والدينية وغيرها (٤١) . كما يؤكد بوتومورو
أيضا بقوله : ان التفاوت الاجتماعى يتعلق أساسا بالنتائج الاجتماعى الذى
تخلقه وتصونه نظم الملكية والارث للثروة والقوة السياسية والعسكرية ،
تلك التى تلقى سندنا وعونا من معتقدات ومذاهب معينة حتى ولو واجهت
مقاومة ومعارضة طموح أفراد بارزين (٤٣) . ويشير الدكتور الجوهري أيضا
بقوله : بأن طائفة غير قليلة من المفكرين ترجع فكرة التفرقة العنصرية الى
عوامل تاريخية واجتماعية نشأت عن هجرة أجناس واستقرارها أو اغتصابها
لبلاذ تسكنها أجناس أخرى ، فالذى يحدث عادة أن الجنس الذى يتولى الحكم
فيها ويفرض سلطانه على سكانها الأصليين يحتكر لنفسه أسباب التقدم
الحضارى ويحرم منها الأقوام المغلوبة على أمرها بكافة القيود التى يغلقها
بها ، ومن ثم تتحسن وتتقدم الظروف الاقتصادية والاجتماعية للعنصر القاهر
فى الوقت الذى يتردى فيه السكان الأصليون فى الحضيض (٤٤) .

(٤٠) موريس دوفرجيه : مدخل الى علم السياسة ، ترجمة جمال الاتاسى وسامى الدروبي ،
دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، ص ١٩ وما بعدها .

(٤١) د. أحمد الخشاب : مقال فى المجلة الاجتماعية القومية بمصر ، عدد سبتمبر ١٩٧١
ص ٧ الى ٤٢ (عدد خاص عن التفرقة والتمييز العنصرى) .

(٤٢) المرجع السابق ص ١٩ .

(٤٣) بوتومورو : الصفوة والمجتمع مرجع سابق ص ١٤٢ .

(٤٤) د. محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث - دار

المعارف المصرية ١٩٧٨ ، ص ٢١٦ .

وأخيرا وحينما تعجز هذه الرؤية عن الدفاع عن نفسها أو الصمود ويصير أولى بها أن تقر بهذه الحقائق وتتعترف بها بحس علمي متواضع ومحايدين فانها تضطر الى عملية الاعتراف بوجود النظام الطبقي في المجتمع فعلا ولكن بطريقة مشوهة جدا وبأسلوب فيه من الافساد لحقائق اجتماعية واقتصادية أخرى أكثر أهمية من مجرد نظام الطبقات وحدها .

ذلك أن هذه الرؤية الرأسمالية والامبريالية في الوقت الذي تصر فيه دائما على خلق مجتمعاتها من الطبقات تقدم في الوقت نفسه اعترافا ضمنيا وغير مباشر من خلال حملاتها المحمومة على النظام الاشتراكي ، باعتبار أنه ما يزال هو أيضا مجتمعا طبقيا ويحكم بواسطة طبقة خاصة من البروقراطيين السياسيين - كما يقول دوجلاس - Dijilas أحد النقاد اليوغوسلافيين للشيعوية - تتضمن كل خصائص الطبقات الحاكمة القديمة ، فالدليل على أنها طبقة خاصة يكمن في ملكيتها وعلاقاتها المتميزة بالطبقات الأخرى . ان البروقراطية السياسية الشيوعية - كما يقول دوجلاس أيضا - تستخدم الملكية القومية وتستمتع بها وتتصرف بها (٤٥) .

ولقد عقب بوتومورو على هذا الطرح قائلا : ان ذلك في رأي تحليل مضلل جدا للصفوات في المجتمع السوفيتي ، انها ليست بروقراطية على الاطلاق طالما أن أولئك الذين يكونونها « قادة الحزب » ليسوا بروقراطيين اذا ما قورنوا مثلاً بمديرى الصناعة كبروقراطيين . ويضيف مورو في الصفحة التالية قوله : من الخطأ أن نفترض أن الحزب يحكم لأنه يراقب وسائل الانتاج ، لأن الأمر بخلاف ذلك ، فهو يراقب وسائل الانتاج لأن لديه قوة سياسية . . . ولست أقصد القول بأن كبار موظفى الدولة فى الاتحاد السوفيتي وغيره من الدول الشيوعية ليس لديه نفوذ انهم فقط ليسوا طبقة (٤٦) .

كما أن بوتومورو كان واضحا في تقييمه الذى أنهى به مناقشة الآراء الماركسية وضد الماركسية فى طبيعة الطبقات الاجتماعية حيث يقول : ان الانتقادات التى وجهت الى النظرية الماركسية والآراء البديلة التى عرضت

(٤٥) بوتومورو : الصفوة والمجتمع - ص ٩٨ .

(٤٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهري وآخرون - دار

المعارف المصرية ، ص ٩٨ و ٩٩ .

والتي تعتمد أساسا على تمييز ماكس فيبر Max Weber بين التدرج الطبقي والتدرج على أساس الهيبة ، لا ترقى جميعها الى أن تكون نظرية جديدة شاملة تستطيع أن تحل محل نظرية ماركس ، وانما هي تقدم لنا حصرا يتفاوت في درجة منهجيته للمشكلات البارزة (٤٧) .

نخلص من كل هذا الاستطراد التفصيلي لهذه الرؤية البرجوازية والرأسمالية الاستعمارية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية في تفسير الطبقات والفئات الاجتماعية داخل المجتمع الأوربي وخارجه وتاريخها وعلاقاتها الاقتصادية والسياسية ، نخلص الى ثلاث نتائج رئيسية بالنسبة لهذه الرؤية وهي : انها رؤية مضللة ولا علمية من جهة واستعمارية استغلالية من جهة ثانية ورجعية متخلفة من جهة ثالثة .

● فهي أولا مضللة ولا علمية لأنها تتجاهل القوانين الاجتماعية للطبقات في المجتمع وتشوهها ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وتحاول احلال الفئات والشرائح الهامشية في المجتمع محل الطبقات الرئيسية ، محولة بذلك القاعدة الى استثناء والاستثناء الى قاعدة في التفسير العلمي والتاريخي الجدلي للمجتمع وطبقاته وعلاقاته الاجتماعية والانتاجية .

● وهي ثانيا رؤية استعمارية واستغلالية واضحة لأنها تهدف بالدرجة الأولى من وراء هذا التشويه التاريخي والعلمي المضلل للواقع الى المحافظة على المصالح السياسية والاقتصادية الموروثة للطبقات الرأسمالية الأوروبية والأمريكية المسيطرة داخل شعوبها وخارج هذه الشعوب على امتداد المجتمعات النامية والمتخلفة كلها ، والقائمة على أساس المزيد من استغلال وافقار هذه الشعوب واستمرار تخلفها من أجل المزيد من قوة واشباع هذه الطبقات والمجتمعات الرأسمالية الامبريالية .

● وهي ثالثا رؤية رجعية متخلفة لأنها تريد تثبيت انواق حيث هو الآن وكما هو بلا تغيير أو اضافة ، أو تنتهي به على الأصح حيث انتهت اليه أعلى درجات مصالحها في الوقت الحاضر ، واذا لم تسعفها النظريات والفتاوى البرجوازية والعنصرية الفاسدة لذلك أمام حقائق التاريخ وقوانين التطور ، فإن الكذب والخرافة والشعوذة ومختلف أنواع الدعاوى

الغيبية والميتافيزيقية المنحطة أصبحت اليوم من الأمور المستحبة لدى هذه الرؤيا اذا ما وجد أنها تستطيع أن تمد من آجال أصحابها ومصالحهم ولو الى بعض حين ، حيث تتجلى أبعاد هذه الرؤية الرأسمالية الرجعية والمتخلفة أيضا من خلال تحالفها المعاصر مع كل الطبقات الرجعية والاقطاعية في البلاد النامية والمتخلفة ودفاعها عنها في الوقت الحاضر بلا حدود .

ولنعد الآن الى صميم موضوعنا في هذه الدراسة حول فئة المثقفين بصفة عامة والمثقفين في البلدان النامية والمتخلفة بصفة خاصة حيث سيتضح لنا من خلال كل الفصول والصفحات التالية من هذه الدراسة لا مجرد الفهم العلمي لحقيقة هذه الفئة ودورها المتميز في المجتمعات النامية والمتخلفة فحسب بل وصدق كل المقولات والبديهيات التي سبق الحديث عنها حول الثقافة والمثقفين والفئات والطبقات الاجتماعية بصفة عامة وما قيل ويقال عنها من أفكار ونظريات مختلفة .

الفصل الثاني

متقفو البلدان النامية

نشأتهم وتطورهم

متقفو البلدان النامية والبداية الغاطئة :

إذا كان قد سبق لنا وأن ناقشنا في مطلع الفصل السابق المفهوم الأكثر شمولاً وعموميةً لعنى الثقافة والمتقفين فإن موضوعنا المباشر هنا هو الحديث عن الثقافة ومتقفى البلدان النامية وما يتميزون به من الخصوصيات والسمات المحلية والإقليمية والقومية التى رافقت نشأة الحديثة لمتقفين المعاصرين لهذه البلدان وأسهمت جوهرياً فى تشكيلها بطريقة ما قد تباير الأسس الموضوعية والعلمية لتكوين المتقف ودوره الطبقي بصفة عامة إلى حد ما والتي سبق الحديث عنها .

فإذا كان المتقفون فى المجتمعات غير المتحضرة - كما يقول بوتومورو - هم السحرة والكهان والشعراء والفنانين والملمين بأمور الأنساب .. الخ . فإن هذه الفئة تضم فى المجتمعات المتحضرة الفلاسفة والشعراء والفنانين والموظفين والمحامين والسياسيين(١) .. فانه يمكن اعتبار فترة البدايات الأولى لحركة الغزو والسيطرة الاستعمارية المباشرة للبلدان النامية والمتخلفة حالياً أو ما صار يعرف فى نظر البعض ببلدان العالم الثالث(٢) هى مرحلة

(١) بوتومورو : الصفوة والمجتمع - مرجع سابق ص ٨٧ .

(٢) نحن لا نميل إلى استخدام مصطلح « العالم الثالث » كتعريف لمجموعة الشعوب والمجتمعات النامية والمتخلفة شكلاً وموضوعاً ، فبغض النظر عن كون هذه التسمية قد أطلقتها مجموعة الدول الاستعمارية والراسمالية الكبرى على هذه الشعوب غداة حصولها على الاستقلال السياسى فى محاولة مباشرة وغير مباشرة للبعد بها عن مجموعة المنظومة الاشتراكية والتقارب والتعاون معها ، فإن هذه التسمية رغم ما قد حظيت به من شيوع واستخدام حسن النية من قبل الكثير من الباحثين دون مناقشة فانه لا يتضمن أية دلالة لغوية أو موضوعية سليمة . إذا كان هذا هو العالم الثالث فأين الأول وأين الثانى وأين الرابع الخ !! وإذا كان المفهوم الضمنى للعالم الأول والثانى هما المنظومة الاشتراكية والمنظومة الراسمالية فأيهما الرقم الأول =

التكوين الجينى الأول لشرائح المثقفين وأنصاف المثقفين المعاصرين في هذه البلدان حديثا ، وأن البدايات الأولى لمرحلة النضال من أجل التحرر الوطنى والخلاص من السيطرة السياسية الاستعمارية المباشرة منذ ما قبل منتصف القرن الحالى هى بمثابة الميلاد الحقيقى لهذه الشرائح التى ساهمت كل الطبقات والفئات الاجتماعية على اختلاف نزعاتها فى عملية الحمل والولادة . هذا مع ملاحظة أن الطبقات والفئات الغنية والموسرة التى استطاعت بفضل ذلك أن تحصل على فرص أفضل لتعليم وتثيف أبنائها قد قدمت الاسهام الأكبر فى تكوين عدد المثقفين بالقياس الى الطبقات والفئات الفقيرة فى ظل السيطرة الاستعمارية ، الا أن تحليل المثقفين بالاستناد الى منشأهم الاجتماعى وحده لا يمكن بحد ذاته أن يؤدى الى أية استنتاجات حول المواقف السياسية للمثقفين ، ففى غالبية البلدان النامية خرج من الوسط الاجتماعى الواحد رجال يمثلون الماركسية وكذلك زعماء لمنظمات رجعية عاتية(٣) .

ولقد كانت طبيعة الظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية بشكل عام التى أحاطت بتكوين وميلاد هذه الشرائح من المثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة قبيل وأثناء مرحلة النضال من أجل التحرر السياسى كانت وما تزال هى أشد العوامل حسما وفاعلية فى تكوين وبلورة شخصية هذه الشرائح ومحتواها الفكرى وممارساتها العملية حتى اليوم ، الأمر الذى يستوجب الإشارة الى طبيعة هذه الظروف بتفصيل أكثر .

طبيعة الظروف التى تكون ونشأ فى ظلها مثقفو البلدان النامية :

وحتى نتوصل الى تحديد علمى وموضوعى للملامح وأبعاد هذه الشخصية الاجتماعية لمثقفى هذه البلدان وبلورة محتواها ومواقفها العملية

وأيهما الثانى ؟؟ وما هو المحتوى الضمنى للعالم الثالث ؟؟ ثم هل انتهى تقسيم الكرة الأرضية الى ثلاثة عوالم أم أن المستقبل يعد بأرقام عوالم جديدة (رابع وخامس .. الخ) . هذا بالإضافة الى انعدام الصلة المنطقية واللغوية بين الأرقام والمسميات ، حيث يمكن إلحاق الرقم أو ربطه بأى اسم ، ولا يمكن تحويل الرقم نفسه الى اسم ، لأن الأسماء مفاهيم نسبية متغيرة والأرقام نظرية مطلقة ، وهكذا تتأكد ركازة وخطأ استخدام هذا المفهوم الشائع باسم « العالم الثالث » كما يتضح أيضا أن تعبير البلدان النامية أو المتخلفة أو هما معا هو الأقرب الى الموضوعية ، رغم أن هذا المفهوم ما يزال هو الآخر بحاجة الى مناقشة .

(٣) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان النامية - ص ٣٥٨

مرجع سابق .

الناجمة عن ذلك لابد وأن نشخص أولا طبيعة البيئة والظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية التي تكونت ونشأت في ظلها هذه الشرائح كمدخل تاريخي وجدلي لابد منه لتحديد أبعاد هذه الشخصية من جهة وتأكيذا لحقيقة أن البيئة الاجتماعية والظروف الطبيعية المحيطة اذا كانت هي التي تشكل العامل الحاسم في خلق وتشكيل الكائن الحي نفسه فانها من باب أولى تعتبر أكثر العوامل حسما في ايجاد وتشكيل الظواهر الاجتماعية عامة بما فيها شرائح المثقفين المعاصرين في البلدان النامية والمتخلفة في الوقت الحاضر كواحدة من أبرز الظواهر المعاصرة . ويمكن تحديد الملامح الأساسية لتلك المرحلة داخليا وخارجيا في :

(١) حالة شاملة من الركود والاستسلام لأشد المفاهيم الاقطاعية تخلقا ابتداء من انتشار الأمية والخرافة والجهل والعزلة مروراً بانحطاط المشاعر القومية والانتماء الوطني(٤) وانتهاء بأبشع مظاهر القهر الطبقي والسياسي والظلم الاجتماعي للطبقات الاقطاعية المتسلطة والارستقراطيات العشائرية والدينية والقبلية الدائرة في فلكها ضد الطبقات الأخرى من عامة الشعب من فلاحين وعمال وتجار صفار (أصحاب ورش ودكاكين) وغيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى ممن لا ننسجم أو تتكامل مصالحهم مع مصالح الطبقات والفئات المسيطرة (جنود - مثقفين مستنيرين - جماعات سياسية معارضة .. الخ) .

(٤) المعروف دائما عن المجتمعات والجماعات الاقطاعية وشبه الاقطاعية هو تغليبها المستمر لمشاعر الانتماء الأسرى والعشائري والاقليمي على حساب مشاعر الانتماء الوطني والاجتماعي والوحدة الوطنية والدولة المركزية بصفة عامة بل وتعارضها دائما ، وفي مقابل الطبقات الاقطاعية التي كان هذا شأنها في المجتمع الأوربي القديم وما يزال كذلك في الوقت الحاضر بالنسبة للمجتمعات النامية والمتخلفة تبرز اليوم في هذه المجتمعات المتخلفة فئة جديدة أكثر خطورة على السيادة والوحدة الوطنية وهي فئة الكمبرادور (الوسطاء التجاريين الدوليين) التي لا تميل الى اضعاف الوحدة الوطنية وعرقلة التنمية عن طريق تغليب الاعتبارات الأسرية والعشائرية والاقليمية على الولاء الوطني كما يفعل الاقطاع ، بقدر ما أنها تميل الى التحلل شبه النهائي من الانتماء الى الوطن واحترام حق المواطنة بأى شكل من الأشكال وتحولهم الى مضاربين دوليين لصالح الاحتكارات العالمية وتوزيع منتجاتها ، ولا ينظرون الى حق المواطنة في وطنهم الأصل أو يحتاجون اليها الا باعتبارها امتيازاً تجارياً لهم يستخدمونها من أجل المزيد من نشاط الاستيراد والتوزيع لمنتجات الاحتكارات الرأسمالية الدولية وإزالة أية عوائق في طريقها ، والتي ينتمون اليها كمثقلين على فئات مواندها أكثر من انتمائهم الى موطنهم بكثير .

(ب) غزو استعماري مباشر يعمل بلا تردد على تكسير وتحطيم هذه الأوضاع بحدّة وشراسة لا هوادة فيها ، لكي ينفرد بكل الامتيازات السياسية والاقتصادية القائمة من جهة ويعيد ترتيب أوضاعها وتكييفها من جديد بما يتوافق وطبيعة مصالحه الدولية ومضامينها السياسية والاقتصادية المغايرة جذريا لكل ما هو موجود من جهة أخرى وفي ضوء مفاهيم وطموحات البرجوازية الأوروبية ومضامينها العقلية والتقنية الحديثة (٥) .

(ج) وأمام هذا المتغير الأوربي الاستعماري الحاد الذي أمسك بزمام المبادرة في كل شيء تقريبا ومن خلال التعامل معه بغير تكافؤ وبمرور الوقت حدثت عملية استرجاع واجترار تاريخي عميق بطريقة غامضة وباهتة للماضي التاريخي والحضاري لهذه الشعوب من كل الفئات والطبقات في المجتمع بلا استثناء في محاولة سلبية لمواجهة الواقع المتداعي من تحت أرجلهم جميعا قطعة قطعة ، وأشبّه ما تكون بعملية البحث عن تعويض معنوي غامض أو « افاقة الموت » كما يقال أنها تحدث للمحتضر قبل لحظات الاحتضار الأخيرة .

(د) وإذا كانت عملية الاجترار الغامض للماضي بهذا الشكل قد عجزت بطبيعة الحال عن رأب الواقع الاقتصادي والاجتماعي المتصدع والمنهار أو المحافظة عليه ، الا أنها قد أفرزت بمرور الوقت - ولو بطريقة غير مباشرة - مجموعة من النتائج الهامة والجوهرية الأخرى وأهمها نمو المشاعر القومية من جهة والرغبة الوطنية للتخلص من السيطرة السياسية الاستعمارية المباشرة من جهة أخرى ، باعتبار أنها تشكل التجسيد الوحيد لا لمجرد السيطرة الأجنبية على السلطة فحسب بل ولكل المشاكل الداخلية أيضا ، وبزواله تزول كل المتاعب والمشاكل ويسترد الاعتبار القومي والوطني المهان تحت السيطرة الأجنبية المباشرة . ولقد شاركت كل الطبقات والفئات

(٥) يمكن تلخيص أهم النقاط التي ارتكز عليها النشاط الاستعماري المبكر في :

- ١ - تعديل النظم الاقطاعية القديمة بتحويلها من أنظمة اقلية وعشائرية معزولة الى نظام ممرّز الى حد ما .
 - ٢ - تحطيم نمط الانتاج والاستهلاك الاقطاعي القديم المرتبط بالداخل وصولا الى خلق سوق رأسمالية ممرّزة تقوم على أساس تحطيم كل أشكال الانتاج المهنّ محليا وتصدير كل ما يمكن انتاجه من مواد خام واستيراد كل ما يحتاجه المجتمع من سلع الاستهلاك .
 - ٣ - ثم اقامة شبكات هائلة من وسائل النقل والمواصلات التجارية من موانئ ومطارات وسكك حديدية .
- انج . تمكن وتسهل انجاح المهام السابقة والذي يراجع تاريخ مصر والهند في هذا الشأن يجد أفضل مثل على ذلك .

الأساسية فى المجتمع تقريباً فى صنع هذا الموقف والنضال من أجله مع بعض الفروق النسبية فى طبيعة الأدوار ونوع الأداة وتقارير الأهداف والمقاصد حتى تحقق التحرر السياسى فعلاً بعد زمن طويل من السيطرة الأجنبية المباشرة .

النشأة الانتقائية للمثقفين :

والآن وبعد هذا الاستعراض السريع لفترة ما قبل وأثناء مرحلة التحرر السياسى فى البلدان النامية سيكون فى مقدورنا أن نحدد فى ضوءها طبيعة المنشأ والتكوين الحقيقى لشرائح المثقفين فى هذه المجتمعات وما لعبته من أدوار مختلفة حتى الآن . فلقد كان الاحساس العميق بحاجة الطبقات الاقطاعية المتسلطة فى المجتمع ، وكذلك الجماعات الأوجاركية (الديكتاتوريات العسكرية) والأرستقراطيات المختلفة الى الدفاع عن نفسها والتعبير عن قلقها وخوفها تجاه واقعها المنهار ، مع عجزها - بحكم التقادم - عن امتلاك الأدوات والقدرات التعبيرية والتكتيكية المناسبة لذلك من داخلها ، كان كل ذلك يدفعها بطريقة مباشرة وغير مباشرة الى افراز مجاميع واسعة من أنبائها والدفع بهم الى مجال التعليم والتثقيف الحديث الذى أتيح فى ظل السيطرة الاستعمارية استعداداً منها للقيام بتلك المهمة فى صورتها ، والتي كانت تحس هى بالعجز عن القيام بها بإمكانياتها التقليدية ، أو من أجل الحصول على امتيازات أكثر فى ظل السيطرة الاستعمارية على الأقل .

كما أن بقية الطبقات والفئات الأخرى الواقعة فى أسفل السلم الاجتماعى من فلاحين وعمال وتجّار صغار وحرفيين وغيرهم من الفئات الهامشية الأخرى قد فعلت نفس الشيء وبحماس أكثر من خلال بعض الفرض الضيقة التى حصلت عليها فى ظل نفس الظروف . ومن المفارقات العجيبة أن يلتقى هذا النزوع والرغبة شبه الجماعية من كل فئات وطبقات المجتمع مع رغبة مماثلة من قبل السلطات الاستعمارية المباشرة التى ظلت ترغب دائماً فى الحصول على المستخدمين والكتبة والجنود والشرطة المحليين المؤهلين الذين لا غنى عنهم كجانب محلى تابع ومكمل للإدارة الاستعمارية الجديدة (٦) .

(٦) راجع على باذيب : ثقافتنا الوطنية وآفاق تطورها ، فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٠٨ الى ١١٤ .

وهنا ومن هذا المنطلق تتضح النشأة الانتقائية للمثقفين فى هذه المجتمعات منذ البداية فى ضوء مفاهيم قومية انتقائية ، وليس على أسس ايدولوجية وطبقية ، حيث كان هؤلاء المثقفون لا يعبرون عن طبقاتهم بقدر ما يعبرون عن الحمارس والمشاعر القومية المشتركة لكل الطبقات والانتماء الوطنى المشترك . فمنذ الفصول الأولى للدراسة فى الجامعات والمعاهد - كما يذكر مجموعة من الباحثين السوفييت - كان الطلاب كفة مثقفة بما يمتازون به من سرعة الاستيعاب يتمثلون الأفكار القومية ويتعرفون الى طبيعة الأشياء فى العالم الخارجى والى طراز الحياة الاجتماعية فى الغرب ويتحولون بأكثريةهم الى أنصار للتغييرات الحاسمة والاصلاحات الجبرية (٧) .

ومن الأمور والعوامل الحاسمة التى دفعت بهذه البداية والنشأة الانتقائية الخاطئة لمثقفى البلدان اثنامية والمتخلفة الى أقصى مدى ممكن وأجل من اكتشاف خطئها ، هو أنه حينما بدأت مرحلة النضال من أجل التحرر السياسى كانت هذه العناصر المتساقطة أو المنتقاة من مختلف الفئات والطبقات فى المجتمع قد نمت واتسع حجمها أفقيا ورأسيا وصار لها فكرها وثقافتها شبه المتميزة عن فكر وثقافة أصولها الطبقية التقليدية ، وهى عبارة عن مزيج من الخبرة المهنية الوظيفية والمفاهيم الثقافية الغربية التى جلبها الاستعمار وسمح بنشرها وتداولها كعامل أساسى فى تكوينهم الفكرى من جهة والشعور القومى والوطنى غير الواضح وغير المبلور من جهة أخرى ، ووجد من بين أوساطهم من تجاوزوا فى اتجاههم الرأسى مجرد كونهم كتبة وموظفين مهرة ضمن الادارة الاستعمارية أو خارجها الى تأكيد وجودهم كأصحاب وعى وثقافة أكثر نضجا وارتقاء بالنسبة لآبناء وطنهم بعامية ، من شعراء وأدباء وكتاب صحافة وقادة نقابيين نشطين بل وزعماء حركات ومنظمات سياسية أيضا ، واضطلعوا بالعبء الأكبر فى إثارة المشاعر القومية والوطنية وقيادة النضال الوطنى لكل الطبقات والفئات الأخرى ضد المحتل الأجنبى فى مرحلة التحرر السياسى ، ومن أوساطهم أيضا تبلور التكوين والولادة الحقيقية لما نعينه هنا بمثقفى البلدان اثنامية منذ مطلع هذا القرن الحالى وحتى الآن .

فلقد اكتسب المثقفون - كما يقول بوتومورو - مكانة رائدة فى الحركات الراديكالية ، ولا يزال دورهم واضحا كما أظهرت ذلك أحداث بولندا والمجر عام ١٩٥٦ وثورة كوبا والحركات المناهضة للاستعمار فى بلاد كثيرة (٨) .

(٧) مجموعة من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان اثنامية ، ص ٣٩٢ .

(٨) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ٨٩ .

الاتفاق العلني والتناقص الخفي بين الفئات والطبقات في مرحلة التحرر السياسي :

لقد كانت حرارة الحماس القومي للنضال الوطني ضد الاستعمار من أجل التحرر السياسي تشكل في مرحلة ما قبل الاستقلال مباشرة ما يشبه دور القاسم المشترك بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية . والعامل الحاسم في تكوين وعيها السياسي ، وفي مقدمة الجميع هؤلاء المثقفين الذين اضطلعوا بدور القيادة السياسية والعسكرية للنضال وتشبعوا حتى الشمالة بفكرة الطموح والحماس القومي والوطني للاستقلال السياسي . لا باعتباره مجرد انتزاع لندارة والسلطة من المستعمر فحسب بل وغاية في حد ذاته - كما كن الكل يتصور - لتحقيق الاستقلال الاقتصادي والسيادة الوطنية وبناء مجتمع حديث ومتطور فورا وبصورة شبه تلقائية وبدون مقدمات واضحة أو شروط موضوعية محددة ، فغالبا ما شكل المثقفون في المجتمعات النامية صفوة راديكالية متماسكة لعبت دورا هاما في الحياة السياسية في مرحلة التحرر السياسي والقومي (٩) .

وهكذا ففي الوقت الذي ساعدت هذه الظروف على تنمية الشعور القومي الذي أدى الى الاجماع شبه الكامل على مقاومة السنطة الأجنبية والحصول على الاستقلال ، الا أنه قد عمل في الوقت نفسه على تكريس مجموعة من الثغرات ونقاط الضعف الخطيرة في حياة هذه المجتمعات حالت دون تحريرها الاقتصادي والاجتماعي الكامل والحقيقي حتى اليوم ، والتي لم يبدأ اكتشافها الا غداة الاستقلال الشكلي « الكسيح » . وكانت فئة أو شريحة المثقفين التي كانت تطرح نفسها على أنها الأكثر وعيا وادراكا لمجريات الأمور وتحتل بموجب ذلك موقع رأس الحربة المتقدمة في عملية النضال من أجل التحرر السياسي ، هذه الفئة كانت هي أكثر الباقيين جميعا جهلا بهذه الثغرات ذات الأبعاد الاجتماعية والطبقية والتاريخية في المجتمع ، وذلك بحكم تكوينهم الانتقائي الخاطئ وطبيعتهم اللابصرية وتفكيرهم اللاتاريخي واللاجدلي ، ولأن لديهم دائما - كما يقول بوتومورو - ميل نحو طرح مشكلات مجردة بدرجات متفاوتة من الأخلاص ، وهم غالبا ما يوسعون من نطاق هذه المشكلات بمقدرة عالية ، لكن هذا الاتجاه أو الميل يتضمن أنهم غالبا ما يقترحون حلولاً غير واقعية ، وأنهم أيضا يتمسكون بالفرعيات ويهملون المسائل الرئيسية وعدم الاتفاق فيما بينهم (١٠) .

(٩) نفس المرجع السابق ص ٩٢ .

(١٠) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ٩٠ و ٩١ .

ويأتى فى مقدمة هذه الثغرات ونقاط الضعف تحييد واضعاف بروز العلاقات الطبقيّة السائدة فى المجتمع والوعى الطبقيّ المعبر عنها ، وإزاحة كل ذلك من ساحة النضال ضد الاستعمار القادم من الخارج والخصوم الطبقيّين المتخلفين فى الداخل ، والسذين أثبتت التجارب أن أى منهما (الاستعمار والاحتكارات الدوليّة فى الخارج والطبقات الاقطاعيّة والبرجوازيّة والكبرادورية فى الداخل) يستطيع أن يقوم بنفس المهمة فى حالة غياب الآخر أو الانابة عنه فى أداء نفس المهمة المشتركة والتي لا خلاف حولها من الناحية الاستراتيجية وهى المحافظة على الأوضاع والمصالح التقليديّة المجسدة لحالة التخلف كما هى وعدم السماح بأى تحديث ايجابى معاصر الا فى حدود ما يضمن تقوية وتدعيم هذه الأوضاع وتكريها أكثر فأكثر فى الداخل من جهة ، وزيادة نصيب القوى الاستعماريّة والامبرياليّة والاحتكارات الدوليّة فى الخارج من المصالح الاقتصاديّة والسياسيّة المباشرة وغير المباشرة فى هذه الأوضاع نفسها من جهة أخرى .

ولقد ذهب بول باران الى تأكيد هذه الحقيقة بالقول : بأن الطبقات الحاكمة فى الغرب لديها مصالح خاصة فى استمرار الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة الراهنة فى البلاد الناميّة . . وهى تتبنى استراتيجيّة لضمان استمرار تخلف الدول المتخلفة تقوم على تأييد ودعم « الجماعات المحافظة والرجعيّة » فى الدول الأخيرة بما تقدمه لها من مساعدات اقتصاديّة وعسكريّة (١١) .

كما أنه قد اتضح مؤخرًا وبما لا يدع مجالًا للشك أن المشاركة الهامشيّة لتلك الطبقات وتعاطفها فى النضال من أجل الحصول على الاستقلال السياسيّ لم يكن فى حقيقته أكثر من مجرد رغبة فى استعادة ما أخذته منها سلطنة المستعمر الأجنبيّ من الامتيازات السياسيّة والاقتصاديّة وانفرادها بها من جديد ، أو تقاسمها معه على الأقل ، وتنسيق مصالحهما معا فى المستقبل ، وهو الأمر الذى حدث بالفعل بعد تحقيق الاستقلال السياسيّ المزيّف ، ولم تكن مشاركتها وتعاطفها هو بقصد تحقيق استقلال سياسيّ واقتصاديّ واجتماعيّ ناجز وإيجاد تحولات اجتماعيّة جذريّة على طريق بناء مجتمع متطور جديد ومتقدم كما كانت تظن مجاميع المثقفين وغيرهم من الجماعات الليبراليّة والشعبيّة الأخرى فى المجتمع .

(١١) د السيد الحسينى وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعيّة - ص ١٢٦ و ١٢٧

فالبرجوازية الكمبرادورية مرتبطة بشكل وثيق بالرأسماليين الأجانب والاقطاعيين المحليين وهى تشكل مع العناصر الاقطاعية ونصف الاقطاعية الركيزة الاجتماعية الرئيسية للامبريالية في البلدان المستعمرة والمتخلفة (١٢) .

فلقد كان الكل فيما قبل مرحلة الاستقلال يعمل من أجل الحصول عليه علنا ، والكل سرا وبطريقة غير مباشرة يعتقد بأنه صاحب الحق في قيادة مرحلة ما بعد الاستقلال مباشرة والاستئثار بمنافعها دون أن يكون بحاجة حتى لمجرد اعلان هذه الرغبة أو اشعار الآخرين بها على الأقل . فالتطبقات الاقطاعية والأرستقراطيات المسيطرة فى الماضى افترضت بأن الاستقلال هو مجرد استرداد حق تاريخى سلب منها أصلا ، والبرجوازية الصغيرة التجارية والكمبرادورية التى ازدهرت فى ظل السلطة الاستعمارية اعتقدت أيضا أنها صاحبة المستقبل الحقيقى بكل ما تحمله من معانى التجديد والتطوير الحديث الشكلى انقسام على أساس التكامل والتبعية للاحتكارات الاقتصادية فى الخارج والاكتفاء بالتعيش الطفيل على هامشها فى الداخل .

فلقد اضطرت البرجوازية - كما يؤكد مجموعة من العلماء السوفييت - بسبب معاناتها من اضطهاد الاحتكارات الامبريالية ومن تضييقها لمصالحها الطبقة الى مقاومة توسع نفوذ الاحتكارات والى مساندة حركة التحرر الوطنى ولكنها تحاول بالمقابل وبنفس الحماس أن تقيم الحواجز فى وجه الأفكار الاشتراكية والتقدمية التى أخذت تغزو البلدان المتحررة . فالحياة تدفع البرجوازية المتوسطة الى مجابهة الاحتكارات الأجنبية والطبقات القديمة ورأس المال الوطنى الكبير من جهة والى مجابهة البروليتاريا وكل الشغيلة من جهة أخرى (١٣) .

أما بقية الطبقات والفئات الأخرى فى المجتمع ذات التوجه الوطنى والديمقراطى بطبيعتها من عمال وفلاحين وجنود ومتقنين وطنيين .. الخ ، وذات التركيب والمضمون المضاد جملة وتفصيلا لما سبق ، فهى اما بعييدة نسبيا عن حلبة الصراع المباشر ولم تفصح بعد عن مصالحها ومطالبها الطبقة فى تلك المرحلة بالذات مثل طبقة الفلاحين التى تشكل القاعدة العريضة للهرم الاجتماعى فى البلدان النامية والمتخلفة حتى الآن ، واما أنها ما تزال

(١٢) راجع مجموعة الباحثين السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان النامية ، ص ٤٨

(انظر من الصفحة الهامش) .

(١٣) المرجع السابق - ص ٢١٨ و ٢٨٨ .

ضعيفة التكوين نسبيا مثل طبقة العمال ، رغم أنها ظلت تشكل بمواقفها ومطالبها الوطنية حالة حضور مستمر طوال مرحلة النضال من أجل التحرر السياسى من خلال قياداتهم ومؤسساتهم النقابية والسياسية المختلفة .

والفئة الاجتماعية التى شكلت أكثر المواقف حدة وفعالية فى هذا الشأن هى فئة المثقفين التى كانت نقطة الارتكاز فى العملية بكاملها بالتنسيق مع كل الطبقات السابقة وبعض الفئات الاجتماعية الأخرى ، مثل الجنود والطلبة وبعض أصحاب المهن كالأطباء والمهندسين وصغار التجار « أصحاب الدكاكين » فهؤلاء المثقفين الذين شكلوا همزة الوصل أو ما يشبه القاسم المشترك بين كل الطبقات والفئات الاجتماعية فى عملية النضال من أجل التحرر السياسى قد افترضوا من جانبهم أيضا أن الاستقلال قضية قومية بالدرجة الأولى ووطنية بشكل ما فى الدرجة الثانية ، ولم يكن لديهم بحكم طبيعتهم الانتقائية والهامشية أى تصور محدد وجرىء لكيفية تشكيل مرحلة ما بعد الاستقلال من الناحية الاقتصادية والاجتماعية على غرار ما كانت تضرمه وتعتقده طبقات الارستقراطيات الاقطاعية القديمة والتطلعات البرجوازية والكمبرادورية الجديدة على نحو ما سبق ذكره .

ولقد جاءت كل النتائج اللاحقة غداة الاستقلال كإفراز جدلى وطبيعى لكل تلك المقدمات السابقة سواء كان الكل يشعر ويعى ذلك بطريقة صحيحة أو خاطئة ، فلقد اصطدمت رغبة هذه الصفوة الجديدة (المثقفون) - كما ينول الدكتور الجوهري - فى الحصول على الاستقلال السياسى الفورى وتأسيس حكومة وطنية منظمة ومركزية قوية برغبة ومصصلحة الصفوة القديمة فى الحفاظ على الظروف التى تؤمن لهم امتيازاتهم التقليدية فى ظل الدولة المستعمرة ، خاصة وأن هذا الاستقلال المطلوب سوف يرفع قبضتهم عن المناطق التى كانوا يسيطرون عليها أو القبائل أو الجماعات الدينية المختلفة (١٤) .

فالاستقلال السياسى رغم قوة الحماس القومى والشعبى له وما توفر له من امكانيات غير عادية تتيح بسهولة امكانية تحول اجتماعى واقتصادى شامل ، الا أنه لم يستطع رغم شعاراته العريضة وحماسه الرنان أن يحقق

أكثر من مجرد استقلال سياسى ناقص وشكلى تماما ، لا يتجاوز فى معظم الأحيان مجرد تلحين السلام الوطنى ورفع الأعلام الدالة عليه وما شابه ذلك .

ذلك أن الاقطاع القديم والنسوء البرجوازى والكمبرادورى الجديد الذى تسلم السلطة الحقيقية كان حتى فى مرحلة النضال من أجل الحصول على الاستقلال يرفض العنف المسلح ضد المستعمر واشراك جماهير الشعب فيه ويكتفى بالعنف السياسى والدبلوماسى الناعم ، فهو لم يدعو قط الى العنف الثورى المسلح ضد الاستعمار ومخلفاته لأنه لم يكن يهدف قط الى قلب الأوضاع التى أنشأها الاستعمار رأسا على عقب ولا يطمح فى أكثر من استلام مقاليد الحكم من يد المستعمر واعادة توزيع المصالح بين الطرفين بصورة أكثر ميلا الى تأكيد مصالح هذه الطبقات والاعتراف بها من قبل المستعمر^(١٥) بل لقد بلغ الحال بمثل هذه الطبقات الرجعية المتخلفة أن خافت من رحيل المستعمر نفسه ورفضت الاستقلال فى بعض الحالات حينما كانت تشتم أبسط المفاهيم الوطنية والتقدمية المرافقة لهذا الاستقلال . ولقد بدت هذه الهوة أوضح ما تكون - كما يقول الدكتور الجوهري - فى نتيجة « الاستفتاء » الذى أجرته حكومة روديسيا الجنوبية فى شهر أكتوبر ١٩٦٤ ، وشمل حوالى ستمائة من زعماء القبائل هناك الذين طالبوا فى الاستفتاء بالانفصال عن بريطانيا والحصول على دستور تحكم من خلاله حكومة « من البيض » وعارضوا أفكار الاستقلال الوطنى والمساواة التى كان يطالب بها الزعماء الافريقيون الوطنيون من بنى جنسيتهم^(١٦) .

حقيقة الوضع الهامشى للمثقفين :

ووسط كل هذه التحولات ومن خلالها كن - كما لاحظنا سابقا - ميلاد فئة المثقفين كافراز نشط لكل الطبقات والفئات الأخرى فى المجتمع من ناحية واضطلاعها بدور رأس الحربة المتقدمة فى اثارة الوعي القومى وتصعيد النضال ضد المستعمر والحصول على الاستقلال السياسى مع بقية الفئات والطبقات الأخرى فى المجتمع من ناحية ثانية ، واعتقادها الجازم بأنها ستظل كذلك فى موقع الصدارة بلا منازع بعد الاستقلال ووفق ما تشبعت به من مفاهيم قومية ووطنية غامضة ومتالية من ناحية ثالثة .

(١٥) د. السيد الحسينى : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، ص ١٢٨ .

(١٦) د. محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ص ٢٦١ .

الا أنه ومنذ صباح اليوم التالى للاستقلال « الكسيح » بدأت الطبقات الاقطاعية والأرستقراطيات القديمة من جهة والبرجوازية الكمبرادورية الجديدة من جهة أخرى يعبر كل منها عن مصالحه انطبعية الحقيقية ويدعما من خلال التنافس السياسى حيناً أو الاقتتال الدموى أحياناً كثيرة من أجل الاستيلاء على السلطة السياسية كإطار ضرورى لحماية المصالح الاقتصادية والطبقية وتطويرها . حيث بدأت هاتين الطبقتين تتقاسمان السلطة بعد رحيل الشكل السياسى للاستعمار من بلد لآخر ، أو يتناوبان الاستيلاء عليها بالقوة من خلال انقلابات متتالية داخل البلد الواحد .

ولو أننا قمنا بعملية مراجعة سريعة لخارطة الوطن العربى مثلاً فى تلك المرحلة التى ما تزال امتداداتها قائمة حتى اليوم لوجدنا أفضل نموذج لما جرت عليه الأمور حتى اليوم فى الوطن العربى والبلدان النامية والمتخلفة بصفة عامة . حيث يمكن تقسيم أقطار الوطن العربى الى ثلاث مجموعات رئيسية ، المجموعة الأولى وتمثل فى كل من مصر والعراق والصومال وليبيا ، وفيها تسلم الاستقلال أولاً الطبقة الاقطاعية وكان استقلال سياسياً هزىلاً تحت السيطرة الاستعمارية المباشرة وغير المباشرة (الأنظمة الملكية فاروق فى مصر وعبدالله ونور السعيد فى بغداد وادريس السنوسى فى ليبيا) وما لبثت البرجوازية أن انتزعت منها هذا الاستقلال بالقوة تحت شعار القومية العربية والوحدة العربية الذى كان له أبلغ الأثر فى حسم المعركة لمصالح البرجوازية من خلال ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر و ١٤ توز ١٩٥٤ فى العراق والفتح من سبتمبر ١٩٦٩ فى ليبيا ، التى أعطت الاستقلال بعداً وطنياً جديداً هو أكثر عمقا ودلالة بالنسبة لما قبله ، ثم ما لبثت الشعارات القومية التى استخدمتها البرجوازية كأداة تكتيكية وانخدع بها المثقفون الذين راهنوا عليها كأداة استراتيجية ضمن مفاهيم سطحية ما لبثت أن سارت فى تناسب عكسى مع ما يحدث فى الواقع من توطيد وتطوير لمصالح البرجوازية والكمبرادورية من جهة وتقهر المد القومى الوطنى والتقدمى الحقيقى من جهة أخرى ، حيث يمكن ملاحظة كل ذلك بوضوح من خلال تتبع خط عبدالناصر فى الوطن العربى وما انتهى إليه هذا الخط داخل مصر بالذات فى الوقت الحاضر ، ومثله خط نهرو فى الهند وسوكرنو فى جنوب شرق آسيا ونكروما فى أفريقيا .

أما المجموعة الثانية فهى عبارة عن أقطار عربية تسلمت فيها البرجوازية الوطنية السلطة من المستعمر مباشرة وسارت فى نفس الخط الذى سارت فيه المجموعة الأولى ، وتمثل هذه المجموعة فى كل من سوريا

ولبنان وتونس والجزائر والشطرن الجنوبي من اليمن(١٧) . أما المجموعة الثالثة وتتمثل فى المغرب والأردن والسعودية والشطرن الشمالى من اليمن ، وفى هذه الأقطار نلاحظ أن الاقطاع اما أنه قد قام بتسلم السلطة من المحتل الأجنبى وما يزال يحافظ عليها وفقا لمفهومه كما هى الحال فى المغرب والأردن أو أنه كان يحكم أصلا بعيدا عن الشكل المباشر للإدارة الاستعمارية مكتفيا بالتعاون والتحالف معها والخضوع غير المباشر لها ، كما هى الحال فى حالة السعودية والشطرن الشمالى من اليمن قبل عام ١٩٦٢ ، والذى دخلت فيه البرجوازية مع الاقطاع فى صراع مرير من أجل الاستيلاء على السلطة منذ عام ١٩٦٢ والذى لم يحسم بعد تاريخيا حتى هذه اللحظة .

فالقادة الوطنيون لمرحلة ما بعد الاستقلال لم يكونوا - كما يقول بوتومورو - من المثقفين أو الثوريين فهم فى الهند (مثلا) لا ينتمون لآى من الفريقين كما أن تأثيرهم (أى المثقفين الثوريين) لم يستمر لفترة طويلة اذ واجهه بعد فترة تأثير القادة السياسيين الذين ينتمون لجماعات مهنية أو لقطاع الأعمال فضلا عن المذاهب الأخلاقية والاجتماعية التى صاغها غاندى واستقاها من الفكر الدينى التقليدى ، وما يصدق على الهند نجد له نماذج أخرى كثيرة فى المجتمعات النامية والمتخلفة(١٨) .

وهكذا لم يفاجأ المثقفون السياسيون بالذات فى هذه المرحلة (غداة الاستقلال وما بعدها) أنهم مبعدون عن مركز القيادة السياسية فحسب بل صاروا هم أشد حلقات السلسلة ضعفا وأقلها قدرة على الاتزان والتماسك وذلك حينما فاجأتهم هول الحقيقة التى ما يزالون يعانون من العجز عن ادراكها حتى الآن ، حقيقة أنهم فى مجموعهم وبحكم طبيعة تكوينهم ونشأتهم الانتقائية الخاطئة منذ البداية ليسوا طبقة ولا جديرين بالدفاع عن مصالح طبقة معينة أو التحالف معها فى مجموعهم ، سواء ان كانت فى قمة السلطة أو خارجها ، وان الحيوط الرفيعة التى ألفت فيما بينهم فى الماضى لا تعدوا كونها مجرد

(١٧) لابد من ملاحظة أن الفئة البرجوازية الوطنية التى تسلمت السلطة من الاستعمار البريطانى فى جنوب اليمن قد دخلت فى صراع مرير منذ اليوم التالى للاستقلال مع خط اليسار الثورى الذى قاد النضال المسلح فى محاولة لاقتصانه عن السلطة والواقع الاجتماعى برمته ، الا أن الأمور قد حسمت بعد ثلاث سنوات من الاستقلال عام ١٩٦٧ لصالح اليسار الثورى نهائيا وسارت الأمور فى غير صالح لخط البرجوازى فى هذه المنطقة من الوطن العربى والتى يمكن أن تشكل الحالة الاستثنائية الوحيدة حتى الآن الى جانب الجزائر الى حد ما ، الأمر الذى سيتضح أكثر فى الفصول القادمة من هذه الدراسة .

احياء وتنشيط لمشاعر « المواطن » والانتماء القومى التى تجمع فى نطاقها أشد المصالح تناقضا فى أى مجتمع تجاه الخطر الخارجى أو أى تهديد للمصير القومى ، وأنهم قد أخطأوا فى تحميلهم لهذه الحقيقة التاريخية أكثر مما تحتمله طبيعتها حينما ظنوا - باحساس طفولى مراهق - أنها قادرة أيضا على حل القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتناقضاتها الذاتية فى المجتمع وبأساليب مثالية مغرقة فى السذاجة .

بل لقد تصدى الكثير منهم بشراسة لفكرة الحل الاجتماعى والصراع الطبقي من خلال المفهوم الجدلى والتاريخى العلمى للعلاقات الاجتماعية بين الطبقات واعادة ترتيب هذه العلاقات جذريا بما يحقق الحل الاجتماعى الجذرى أيضا لمشكلة القهر والظلم والتخلف الاجتماعى بشكل عام ، وذلك كتعبير عن اعتقادهم الطوباوى المريض بأن ذلك سيشكل تهديدا للنوحدة الوطنية والوجود الوطنى نفسه الذى حقق الاستقلال السياسى وسيحقق الحل الاجتماعى أيضا بطريقة ما .

دور المسألة القومية

ولقد كان هذا الفهم الخاطىء للقضية القومية هو أشد نقاط الضعف خطورة وأكثرها مدعاة للضياع المحقق ليس بالنسبة للمثقفين فى البلدان النامية وفى الوطن العربى بالذات فحسب بل وبالنسبة لمبدأ الفهم العلمى والتاريخى السليم لحركة التاريخ وقوانين المجتمع بصفة عامة ، وذلك بالنظر الى هذه القضية باعتبارها المدخل والحل الحاسم للقضية الاقتصادية والاجتماعية بنفس القدر الذى كانت فيه هي المدخل والأداة للحصول على الاستقلال السياسى من السيطرة الأجنبية .

ذلك أن المسألة القومية فى حقيقتها ترتبط جوهريا بقضية الوجود التاريخى والقومى للمجتمع برمته وبكل تناقضاته ومهما كانت طبيعة تركيبه أو المرحلة التى يمر بها ، باعتبارها القاسم المشترك الذى يربط بين كل أفراد المجتمع وطبقاته بلا استثناء بحكم وجودهم وانتماهم الى مجتمع معين يعيش على رقعة جغرافية معينة ويتمتع بسمات وخصوصيات قومية يتميز بها عن غيره من المجتمعات كاللغة والدين والثقافة والامتداد التاريخى والجغرافى والحضارى المشترك فى الماضى والحاضر .. الخ ، وحينما يتعرض هذا الوجود للتهديد أو القهر من قبل قوى خارجية فان اثاره المسألة القومية يلعب دورا حاسما فى دفع المجتمع بكامل فئاته وطبقاته الى مقاومة هذا التهديد على نحو ما جرت عليه الأمور فى مقاومة السلطات الاستعمارية

والعنصرية ومخططاتها الرامية الى مسح هذا الوجود وتحطيمه فى كثير من الشعوب النامية والمتخلفة ذات القوميات المختلفة .

وعند هذا الحد يتوقف دور المسألة القومية ، أما حينما ينظر الى المسألة القومية باعتبارها الوسيلة الوحيدة أيضا لحل مشاكل التخلف والتناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة فان ذلك هو عين الخطأ وأشد نقاط الضعف وأكثرها مدعاة للضياع المحقق الذى وقعت فيه كثير من الشعوب والحركات الوطنية فى المجتمعات النامية والمتخلفة غداة حصولها على الاستقلال السياسى وفى مقدمتها الشعوب العربية التى حاولت عبثا أن تحقق حريتها ووحدتها السياسية وتبنى الاشتراكية ٠٠ الخ من خلال هذه المسألة القومية بلا جدوى حتى اليوم ، ذلك أن تحقيق مثل هذه المهام لا يتأتى قط الا من خلال قضية الصراع الطبقي وتفجير التناقضات الاجتماعية داخل الاطار القومى نفسه ، والتى ستؤدى حتما الى تخليف وازاحة كل الطبقات والفئات الاجتماعية القديمة عن السلطة والتى تحول أساسا بحكم طبيعتها دون تحقيق المهام السابقة كما أن ذلك سيتيح للقوى التقدمية الجديدة الامساك بالسلطة ، والقادرة وحدها على انجاز تلك المهام السابقة على أسس اجتماعية وطبقية أيضا .

ولأن هذا المفهوم قد انقلب على رأسه تماما فى أذهان المثقفين فى البلاد العربية وغير العربية من مجموعة الشعوب النامية والمتخلفة فانهم قد وقعوا نتيجة لذلك فريسة سهلة لأشد نقاط الضعف خطورة ومدعاة لاقتيادهم بسرعة الى المصير الحقيقى التعس الذى كان ينتظرهم بطبيعة الحال على حين غرة كمجرد فئة متشردة من الناس على هامش الحياة الاجتماعية والسياسية لكل الطبقات والفئات فى المجتمع وانتهى أخذت تحتل مواقعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعنف وبلا هوادة ، وبالذات مجاميع الاقطاع القديم ومجاميع البرجوازية والكبرادور الجديد الذين أخذوا ينسقوا بين مصالحهم جميعا قديمة كانت أو حديثة مع الاستعمار الجديد من موقع السلطة وفى ظل الاستقلال المزيف غير عابئين بشيء مما يدور فى أذهان وعواطف المجتمع بصفة عامة وهؤلاء المثقفين الطيبين بصفة خاصة ، والذين ما لبثوا بمرور الوقت أن أدركوا مأساتهم كفئة تعيش بلا هوية حقيقية ممزقة الوجدان والمشاعر ، وتقيم على أرضية اجتماعية شديدة انقلى وأدعى الى الانهيار وعدم الاستقرار ، لا تربطها ايدولوجية محددة كالفئات الدينية مثلا ، ولا مصالح مادية ومهنية ملموسة كالاطباء والمهندسين والحرفيين ، وأبعد ما يكونون فى مجموعهم عن الانتماء الطبقي الى أى من الطبقات

الرئيسية فى المجتمع كطبقة الاقطاع أو الفلاحين أو البرجوازية الناشئة أو الطبقة العمالية التى كانت وما تزال فى دور التكوين .

انهم هجين تجربة أول ولادة اجتماعية مشوهة وغير ناضجة لكل الطبقات والفئات السابقة فى كل مجتمع من مجتمعات البلدان النامية والمتخلفة فى العصر الحديث ، انهم - كما يقول موريس دوفرليه - بحق أناسا مشردين حقا أو أناسا اقتلعت جذورهم من أرضها ، أناسا بؤساء مطرودين من جماعة قديمة لا يقبلونها ومن جماعة جديدة لا يرقى اليها مستوى حياتهم وثقافتهم (١٦) . ولقد تبلور هذا الوضع الهامشى لهذا المولود المشوه والمتشرد وجسد نفسه أكثر فأكثر بمرور الوقت من خلال مجموعة من المميزات والخصائص البارزة التى اتسم بها مثقفوا البلدان النامية والمتخلفة ابان مرحلة التحرر السياسى وما بعدها وأهمها :

(أ) البعد الهامشى عن طبقاتهم وجماعاتهم القديمة وعدم القدرة على تكوين طبقة أو جماعة اجتماعية جديدة متماسكة .

(ب) التذبذب الشديد فى اتخاذ المواقف السطحية المتطرفة بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، مع الاستعداد للعب الأدوار المتناقضة فى وقت واحد ، أو من وقت لآخر بالنسبة للفرد الواحد .

(ج) سوء الفهم العلمى والتاريخى للمسألة القومية وطبيعة دورها السياسى والاجتماعى فى حياة أى مجتمع أو أمة من الأمم .

(د) الاسراف فى النقد النظرى والاحجام عن التضحية والفعل العلمى الا قليلا ، فهم غالبا ما يفشلون فى المواءمة والتوفيق بين ما يقولون وبين ما يفعلون أو بين ما يظنون أنهم قادرون على فعله وبين ما يستطيعونه فعلا .

(هـ) سوء الرؤية وانعدام التمييز الجيد بين ما هو أساسى وما هو ثانوى فى تعاملهم مع بعضهم أو مع الغير ومع الواقع برمته الذى غالبا ما يتعاملون معه من مواقع هامشية وليست مصيرية .

(و) انتشار النرجسية وعشق الذات وتضخيمها المقرون غالبا بالميل

(١٦) موريس دوفرليه : مدخل الى علم السياسة ، ترجمة جمال الاتاسى وسامى الدروبي ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، ص ٢٢٥ .

الى استثمار حالة التخلف القائم بفرض انسهم عليه والبحث عن مصالح طفيلية متخلفة من خلاله .

(ز) التشرد وعدم الاحساس بالأمن والاستقرار النفسى والاجتماعى والعائلى تحت مختلف الظروف والتعرض لنوبات الحساسية وانهيار التوازن الشخصى والنفسى باستمرار .

رحلة المثقفين نحو العودة الى الاصل :

وبينما هذا التهميش والتشرد الحياتى المرير الذى وجد مثقفو البلدان النامية والمتخلفة أنفسهم فى أتونه غداة الاستقلال يفعل بهم فعله الذى لم يكونوا يتوقعونه بهذا الشكل ، حدث ما يشبه عملية جزر جديدة فى مقابل عملية المد القديمة من قبل الطبقات الاجتماعية بالنسبة لهؤلاء المثقفين .

فاذا ما تذكرنا ما أشير اليه فى مكان سابق من هذا البحث عن كيفية النشأة الخاطئة الأولى لهذه الشرائح الاجتماعية المثقفة كافتراض انتقائى مؤقت من كل الفئات والطبقات الاجتماعية فيما يشبه عملية مد بحرى صاحب بفعل ظروف اجتماعية وتاريخية وسياسية معينة ، فإن ما حدث فى الماضى القريب ومنذ مطلع الستينات وما قبلها بقليل وحتى الآن هو حدوث عملية « الجزر » المعاكس تماما ، وبتعبير أوضح فإن كل الطبقات والفئات الاجتماعية التى أفرزت هذه الشريحة من المتعلمين والمثقفين والكتبة والسياسيين بالذات وألفت بينهم روابط وهمية مؤقتة فى مواجهة ظروف وأوضاع مرحلة معينة (النضال ضد الحكم الأجنبى والحصول على الاستقلال السياسى وتنمية مشاعر المواطنة القومية) هى اليوم ومنذ غداة الاستقلال تقوم بعملية عكسية تماما ، حيث تنقسم جماعات الصفوة الجديدة - كما يقول الدكتور الجوهري - على نفسها مكونة عدة معسكرات تلعب الانتماءات القبلية السابقة أو الانتماءات الاقليمية أو غير ذلك من التعصبات القديمة ، تلعب دورا كبير الشأن فى تفديتها وتدعيمها (٢٠) .

أى أن هذه الطبقات والفئات الأصيلة فى التركيب الاجتماعى قد قامت وما تزال فى مرحلة الاستقلال السياسى بعملية جذب وامتصاص عكسية لهؤلاء المثقفين الذين أفرزتهم بالأمس ، مستفيدة من نقاط الضعف

والتهميش والتشرد الحياتي الذي آل اليه هؤلاء التعساء ووجدوا أنفسهم في أتونه ، فكل واحدة من هذه الطبقات الاقطاعية والبرجوازية والفئات الدينية القبلية والأرستقراطيات العشائرية المتخلفة صار كل يحاول الفوز بنصيب الأسد من هذا الصيد الثمين المقطع الأوصال ، ليستفيد من مهاراته المهنية والسياسية والفنية النادرة في سبيل الدفاع عن نفسه وتنمية مصالحه والتغلب على منافسيه ، سواء ان كانوا في السلطة أو خارجها ، وبالطرق المباشرة وغير المباشرة .

وحتى الاستعمار نفسه الذي ارتحل بشكله وبقي بمضمونه ، قد دخل حلبة المنافسة بطريقة مباشرة للحصول على نصيبه الوافر من هذه السلعة الرائجة والتي كان له الدور الاساسي في صنعها منذ البداية وحصل من بين عناصرها على كل ما يحتاجه من أدوات وضمانات تكريس بقائه وتأمين مصالحه الاقتصادية والسياسية بصورة ربما كانت أكثر فعالية من ذي قبل تحت مظلة الاستقلال السياسي المزيف في معظم المجتمعات النامية والمتخلفة حتى الآن .

وهكذا سوف يصبح من المحتم - كما يقول الدكتور محمد الجوهرى - كلما أراد المجتمع استبدال الادارة التقليدية البالية والعاجزة بادرة عصرية جديدة وكلما أرادت الدولة الاضطلاع بوظائف وأعباء جديدة ، كلما وجد هذا المجتمع نفسه مضطرا الى الاستعانة بطبقة من المتخصصين وتشجيعهم ماديا وأديبا ، بل والعمل على اعدادهم وتأهيلهم اذا لم يكونوا موجودين أصلا(٢١) وبذلك أصبحت الطريق مفتوحة الى مراكز السلطة الادارية والسياسية والفنية أمام كل من يرغب من هؤلاء المثقفين المهرة وشبه المهرة ، بشرط أن يؤدوا مهامهم كموظفين ومهنيين وفنيين لا أكثر ، ووفقا لما تقضى به طبيعة التركيب الاقتصادي والاجتماعي السائد وتنميته والمحافظة عليه واحترامه ، والذي لا يعدو كونه في الواقع مجرد نظم اقطاعية متخلفة في الداخل أو برجوازية طفيلية تابعة للخارج أو مزيج من هذا وذاك ، وليس وفقا لطموحاتهم وافتراساتهم المثالية القديمة ، ولا حتى عواطفهم الوطنية والقومية الهشة ، والتي لا بد وأن ينحوها جانباً وهم يقومون بمهامهم الوظيفية الجديدة في اطار التنظيم الاقطاعي هنا أو البرجوازي هناك ، ولا مانع من أن يحتفظوا ببعض مفاهيمها المهذبة والمؤدبة لتسليية أنفسهم في أوقات الفراغ والمناسبات العامة وبعض أعمدة الصحف في أحسن الأحوال .

كما أن الأماكن الشاغرة التي خلفها الاستعمار في مؤسساته الاقتصادية والتجارية الرسمية وغير الرسمية والمؤسسات الجديدة التي تقوم البرجوازية بتنفيذها حينما تكون على قمة السلطة أو متحالفة معها على الأقل قد فتحت هي الأخرى أبوابها الواسعة أمام هذه العناصر المثقفة والمؤهلة بمغريات مادية أكثر جذبا ، وشروط سياسية ومعنوية أكثر قسوة ومهانة ، وحتى الفئات الاجتماعية التقليدية الأكثر تخلفا من قبلية وعشائرية وارستقراطية ودينية متزمتة قد رغب كل منها أيضا في الحصول على نصيب معين من هذه العملة القابلة للتداول والرواج قبل غيرها (المثقفون) اما بحكم الانتماء الأصلي أو الاستعارة المباحة في هذا الشأن ، ملوحة بما لديها من مغريات وشروط . وهكذا صار الأمر بالنسبة لهؤلاء المثقفين يسير وفقا لمبدأ : بقدر ما تعطى تستلم وإذا لم تقبل فغيرك مستعد .

ولم يتوقف الأمر هكذا عند مجرد الخيارات التي لا بديل عنها في كل الحالات السابقة ، بل لقد تعداه الى ما هو أكثر من ذلك بكثير حيث صار مجرد الاعتذار عن قبول أى من الخيارات السابقة وعدم حصول الفرد المثقف على هوية اجتماعية وسياسية تثبت انتماءه لأى منها دليل تهمة كاف لحرمانه من شهادة حسن السير والسلوك في أحسن الأحوال ، أما لو اشتهم منه رائحة رأى مغاير فان فصل رأسه عن جسده هو أقل العقوبات استحقاقا له وأكثرها قربا من مبادئ حقوق الانسان بجانب ما أحدثته وسائل العصر وتكتيكاته المتطورة من وسائل القهر والتعذيب والتشويه والعبث بانسانيته قبل موته ، والتي تحرص هذه الطبقات والفئات المتخلفة على استيراد وتطبيق أحدث منتجاتها وخبراتها قبل حرصها على مكافحة أمراض التيفسود والبلهارسيا ورفع القمامة من الشوارع . وهكذا فان القليلون ممن قد يتورعون عن القبول بأى من الخيارات السابقة لا يستطيعون الصمود طويلا بدون الحصول على شهادات حسن السير والسلوك الا من رحم ربي !!

وهذا لا يعنى أبدا أن هذه الأطراف الاقطاعية والبرجوازية الطفيلية وغيرها من الفئات الاجتماعية الأخرى ذات الطابع السلبي والمتخلف هي وحدها التي تتقاسم هذه الغنيمة بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، ذلك أنه بالرغم من أنها قد فازت بنصيب الأسد الا أن طبقات وفئات اجتماعية أخرى ذات طابع ايجابي وطني وتقدمي قد استطاعت أن تمتص هي الأخرى نسبة محدودة من هذه العناصر المثقفة بحكم ضعفها وكونها ما زالت في دور التكوين كالطبقة العاملة ، أو في دور النفاهة وبداية الوعي والاحساس

بالذات كطبقة الفلاحين وما ينبثق عن كل ذلك من هيئات ومؤسسات نقابية وجماهيرية مختلفة .

فلقد تمت عملية الاقتسام هذه فى جانب أساسى منها على أساس الانتماء الأصولى وتطبيق مبدأ « العودة الى الأصل » (٢٢) كما نفذت فى جانب آخر على أساس انتقائى وعشوائى واسع النطاق . حيث وجد من بين عناصر هؤلاء المثقفين ممن ينتمون الى أصول اجتماعية فقيرة « عمالية وفلاحية وبروليتارية مضطهدة » من يتبنى بحرارة مصالح الطبقات الاقطاعية والبرجوازية الكمبرادورية ويدافع عنها الى هذا الحد أو ذاك ، والعكس صحيح . وهكذا فان الوسط الاجتماعى الواحد فى البلد النامى - كما يقول مجموعة من العلماء السوفييت - يفرز رجالا يتبنون الماركسية ويدافعون عنها كما يفرز زعماء لمنظمات رجعية عاتية (٢٣) .

كما أن الكثير من هذه العناصر قد سحقهم هول مفاجئة كون المثقفين - حقيقة - هم هكذا مجرد تركة يتم اقتسامها أصوليا وعشوائيا بين مختلف الطبقات والفئات الأساسية فى المجتمع ، وانهم لم يكونوا كما تصورا أنفسهم فى مرحلة سابقة ، باعتبارهم طليعة موحدة لكل فئات المجتمع وطبقاته بلا منازع وربما طبقة فوق كل الطبقات قادرة على صنع كل شئ من أعلى ، حيث فشل هؤلاء تماما فى القدرة على التكيف مع أى طرف من الأطراف أو المواقف السابقة أو التوفيق بينها تشبعت به نفوسهم من عواطف ومفاهيم قومية وليبرالية وطنية وبين ما فاجأتهم به حقائق الواقع ، وأصيبوا بحالة من الاستلاب الفكرى والاجتماعى المروع ، وانتكاس معنوى ونفسى خطير أودى بحياة أكثرهم بصورة مباشرة وغير مباشرة (٢٤) .

(٢٢) أقصد بفكرة أو مبدأ العودة الى الأصل أن المثقف ذى الأصول الطبقيّة الاقطاعية أو البرجوازية والرأسمالية فى البلدان النامية بالرغم من تبنيه لأفكار وتطلعات ليبرالية وقومية وتقدمية أيضا فى مواقف علنية معينة خلال مرحلة ما قبل وبعد الاستقلال مباشرة ، الا أنهم قد لاذوا فى مراحل لاحقة الى أصولهم الطبقيّة وتبنوا مواقفها ومصالحها بعق ضمن عملية الاقتسام المشار إليها آنفا ما عدا بعض الحالات الاستثنائية التى تم اقتسامها أو وزعت على الأصح على أساس عشوائى بين مختلف الطبقات والفئات من خلال قنوات سياسية وشخصية .

(٢٣) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان النامية ترجمة الدكتور داوود حيدو ومصطفى الدباس ، الطبعة الثانية - منشورت وزارة الثقافة بدمشق (٢٤) هناك العديد من الأمثلة والحالات الكثيرة لهذا النوع من المثقفين التعساء الذين انتهى بهم الأمر الى الانتحار البطئ من خلال الادمان على المشروبات والمخدرات والميل الى الانطواء النفسى الشديد واللامبالاة والاستهتار وانعدام التركيز الذهنى والميل بدلا من ذلك =

ولا ننسى فى نهاية هذه النقطة أن نشير الى طراز آخر من المثقفين الذين خضعوا لمبدأ الاقتسام هذا ، ولكن ليس على أساس محلى بل على أساس دولى ، حيث تردت فى نفوسهم فكرة الانتماء الوطنى والقومى تحت أى اعتبار من الاعتبارات المشار اليها سابقا ، وراح كل منهم يبحث عن هوية دولية أخرى يستغنى بها عن هويته الوطنية الأصلية بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، اما من خلال الهجرة والانصواء تحت مظلة المنظمات والهيئات الدولية المختلفة التى تشكل اليوم مركز جذب قوى لأفضل القدرات والكفاءات من هذه الشعوب ، والانقطاع الكلى عن الوطن ، أو البحث عن جنسيات أخرى من خلال التشجيع السياسى والفكرى لهذه البؤرة الدولية أو الاقليمية أو تلك .

عوامل تيسير اقتسام المثقفين بين مختلف الطبقات فى المجتمع :

ولقد ساعد ويسر هذا الاقتسام أو الانقسام مجموعة من الاسباب والعوامل الموضوعية والواقعية الرئيسية وأهمها :

(أ) طبيعة الفكرة المثالية الخاطئة التى بنى هؤلاء المثقفون على أساسها وجودهم وتكوينهم منذ البداية ، باعتبارهم طبيعة سياسية واجتماعية موحدة لكل الطبقات وربما طبقة جديدة فوق كل الطبقات قادرة على صنع كل شئ، وفق مفاهيم وفروض مثالية وغير علمية فى مرحلة معينة مما أفقدهم القدرة على الاحتفاظ ولو بالحد الأدنى من التماسك أمام أول اصطدام حقيقى مع الواقع غداة الاستقلال من المحتل الأجنبى .

(ب) طبيعة الأصول الطبقيّة والاجتماعية المختلفة والمتناقضة التى قدموا منها منذ زمن قصير نسبيا ، والتى ما تزال قريبة العهد بهم جدا ، وتشكل الاطار المرجعى الحقيقى لغالبيتهم العظمى فكرا وسنوكا على الأقل ، رغم كل ما أعلنوه وغالطوا به أنفسهم بأنهم قد انفصلوا عن تلك الأصول وتخلوا عن مفاهيمها الى غير رجعة . حيث ما كادت الأرض الهشة والمصطنعة التى يقفون عليها أن تنهار من تحت أرجلهم حتى وجدوا فى أطهرهم الطبقيّة والاجتماعية القديمة تلك ملاذ أمنهم ووجودهم الحقيقى .

= الى الانتحار المباشر أو الجنون فى بعض الحالات الشائعة والتأزم النفسى الحاد بصفة عامة،
ففى اليمن مثلا تصل نسبة المثقفين من هذا النوع الى ما يقارب ٣٣٪ ، وذلك على نحو ما سيتضح فى الفصول القادمة التى سنتحدث فيها عن المثقفين اليمنيين بالذات كنموذج تطبق لهذا البحث .

(ج) افتقار الطبقات الاجتماعية القديمة والجديدة فى المجتمع بحكم تخلفها - رغم سيطرتها على السلطة - الى الخبرات والمهارات الذاتية وحاجتها الملحة لهؤلاء المثقفين لمواجهة ظروف ومتغيرات العصر الجديدة والمواءمة بينها وبين طبيعة مصالحها الحقيقية والعمل على تمتيتها فى ضوء هذه المتغيرات ومن خلالها ، وذلك بالرغم من تواضع تلك الخبرات والمهارات الثقافية والعنية التى يملكها المثقفون عادة الاستقلال على الأقل ، والتى لم تكن تتجاوز فى كثير من الأحيان المراحل الأولى من التعليم . حيث كان المواطن العادى ولا يزال فى البلاد النامية - كما يشير بلاندييه - يميل الى الربط بين « النظام » أو « السلطة » واجادة استخدام القراءة والكتابة وسط شعب أغلبه من الأميين (٢٥) كما أن ذلك كان وما يزال هو أقصى ما تتطلبه الطبقات الرجعية المسيطرة فى هذه الشعوب من أجل ادارة مصالحها المتخلفة وخدمتها بل انها لا تسمح بأكثر منه فى الغالب الأعم .

(د) ان السلطة الاستعمارية حينما رحلت بشكلها السياسى قد بنت استراتيجيتها من أجل المحافظة على بقاء نفوذها ومصالحها الاقتصادية بالاعتماد على القوى والطبقات التقليدية اقدمية بالدرجة الاولى (الاقطاع والأرستقراطيات السياسية والعسكرية والعشائرية الدينية المتزمنة ٠٠ الخ) بعد أن كانت قد نجحت فى افساد ذوقها ونمط استهلاكها وحولته من استهلاك مغلوق ومحدود متجه الى الداخل الى استهلاك مفتوح حديث ومصرف للسلع الرأسمالية المستوردة من الخارج ، كما اعتمد من ناحية اخرى على الطبقة البرجوازية والكمبرادورية الجديدة كحليف سياسى ووسيط اقتصادى تابع ونشيط ومستفيد ، وضمن الاستعمار بذلك استمرار نفوذه السياسى ومصالحه الاقتصادية من خلال وجود أى من هاتين الطبقتين فى السلطة ، وليس من خلال الاعتماد على بعض العناصر السياسية المثقفة على أساس ما كانت تطرحه قبيل الاستقلال من الآراء والمفاهيم الاصلاحية والبراليه فى التحرر الوطنى وفى اطار من التعاون والتعامل من موقف الندد للنند ، والتى كانوا يرددونها حينما كانوا يتقدمون الصفوف فى انفضال من أجل الاستقلال .

بل لقد همس الاستعمار فى آذان هؤلاء المثقفين السياسيين أثناء وبعد رحيله بما فيهم الذين كان قد نجح شئ تجنيدهم من قبل لخدمة مصالحه

وضمهم الى صفه ناصحا اياهم بأن يتخلوا عن تلك المفاهيم وينسقوا مصالحهم المستقبلية من خلال القوى الرئيسية فى المجتمع من الاقطاع والبرجوازية المتطفلة والكبرادور ، وأن يديروا مصالحها من موقع السلطة ، الأمر الذى نفذ بالفعل فى كثير من الحالات وأدى فى الوقت نفسه الى انهيار موقفهم وتفككه بسرعة وعجزهم عن الصمود والمقاومة لوقت أطول .

(هـ) وبالإضافة الى كل العوامل السابقة التى ربما تشكل خصوصيات مرتبطة بثقافة البلدان النامية والمتخلفة وظروف تكوينهم ونشأتهم ، لابد وأن نشير الى وجود الحقيقة العلمية والتاريخية الخاصة بمعنى المثقفين وطبيعة وجودهم الاجتماعى بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى علمى وموضوعى سبق تحديده بالتفصيل فى مطلع هذا البحث والذى يتخلص فى كون المثقفين هم دائما التعبير الهامشى عن كل الطبقات والمصالح المتعارضة والمتناقضة فى كل المجتمعات وعبر مراحل التاريخ المختلفة ، ونقاط الاتصال والتبادل فيما بينها . حيث يشكلون غالبا ما يشبه بيت الخبرة المهنية الذى يقدم خدماته وخبراته ومشوراته لكل من يطلبها أو يقنعه بذلك أكثر من غيره بالاغراء أو الاضطرار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ولقد عبرت هذه الحقيقة التاريخية فى المراحل الأخيرة عن نفسها بوضوح بالنسبة لمثقفى البلدان النامية والمتخلفة رغم قلتهم وتواضع خبراتهم ، ورغم أن الكثير منهم ما يزال عبثا يرفض هذه الحقيقة بشكل عام متشبهاً بالأفكار الديماغوجية السابقة أو يتجاهلها بوعى تام ، ولحاجة ما فى نفس يعقوب ! ، انهم يرفضون الحقيقة التى يؤكدنها جماعة من الباحثين السوفييت والمتمثلة فى كون فئة المثقفين تنحدر بصورة رئيسية من وسط الموظفين والوسط البرجوازى الصغير والاقطاع ، وان هذا المنشأ قد ساعد على أن تكون لديهم عقيدة ازدواجية لا تنفى الملامح الرجعية الملازمة لطبقة البرجوازية الصغيرة (٢٦) .

الاغتراب والحقيقة فى حياة المثقفين :

إذا كان الاغتراب - كما يقول ازفلد Azveld - هو الانفصال بين

الأنانى والآخر انفصال يؤدى الى العدى ، أو هو ذلك الاستلاب الذى يؤدى الى العبودية ، أو هو بمعبارة أخرى فقدان الحرية وزوالها ، فان المشكلة لا تكمن فى كون الحقيقة التاريخية والاجتماعية القائمة تلك بالنسبة لمثقفى البلدان النامية والمتخلفة هى بالفعل هكذا وعلى نحو ما سبق عرضه وتحليله

(٢٦) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان النامية ، ص ٣٩٢ .

وما تقتضيه طبيعة الواقع وظروف المرحلة بقدر ما أن المشكلة والخطورة تكمن أساسا فيما يفترضه الغالبية العظمى من هؤلاء المثقفين في أذهانهم حتى الآن من مفاهيم مغايرة عن الواقع وعن أنفسهم أيضا ، أو مغتربة على الأصح عجزوا معها عن الموازنة بين حقيقتهم وواقعهم ، بين ما يعلنونه وما يطمحون إليه قولا وما تقتضيه ممارستهم العملية والاجتماعية فعلا ، بين ما يحاولون ادعاء الانتماء إليه شكلا وما هم مرتبطون به موضوعا الأمر الذى فقدوا معه اتزانهم وحيثيتهم(٢٧) .

فكون هؤلاء المثقفون يتعرضون اليوم لعملية اقتسام داخلي وخارجي أو يقومون - على الأصح - باعادة توزيع أنفسهم كأدوات وظيفية ووسائل تعبيرية عن مختلف الطبقات والمصالح السياسية والاقتصادية المتناقضة في المجتمع على أساس من الانتماء الأصولي ، أو الاختيار السياسي والوظيفي ، فتلك ظاهرة طبيعية بل وصحية ، ويجب ألا يثير ذلك أى قلق أو خوف على حاضر ومستقبل التطلعات والأفكار الوطنية والتقدمية الجديدة ، أو فشلها في مواجهة الايدولوجيات والأفكار البرجوازية والاقطاعية القديمة ، بل ان مرحلة ما قبل اعادة التوزيع هذا والتي لم تنتهى بعد ، كانت هي أكثر مدعاة للقلق والخوف ، ونقطة الضعف المميتة في جسم المد الوطني والتقدمي الحقيقي في الشعوب النامية والمتخلفة ، حيث كان غياب المضمون الاجتماعي والطبقي الناضج بين المثقفين بصفة عامة والوطنيين والتقدميين منهم بصفة خاصة والجهل بالحقيقة العلمية والتاريخية لمعنى المثقف وطبيعة دوره لهو أشد حلقات السلسلة ضعفا في تكوينهم حتى الآن ، وعامل الحسم في تذبذبهم وتهديد جهودهم وفشلهم في تحقيق قيادة الانتصار الناجز للأفكار الجديدة في مقابل الأفكار القديمة وما ألوا إليه من تشرد وضياح محقق عجزوا معه حتى عن المحافظة على بعض المكاسب القومية والوطنية الباهتة التي كانت تظهر من وقت لآخر وما تلبث أن تختفى بسرعة أكثر(٢٨) .

وحالة الاغتراب هذه في حياة المثقفين لم تكن دائما مجرد ظاهرة مرضية ولا ارادية فحسب ، ولكنها قد تمارس من قبل البعض كنوع من

(٢٧) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان النامية ، ص ٣٩٢ .

(٢٨) يمكن اعتبار تجربة عبدالناصر في مصر ونهرو في الهند ونكروما في غانا وما شابه ذلك من الدلائل الواضحة على اخفاق هذا الخط الاصلاحي القومي وضياح المكاسب الشكلية التي كان قد حققها من وقت لآخر .

التصرف الانتهازى والبحث عن مصالح جديدة أو الدفاع عن النفس وعن مصالح شخصية موجودة .

الفهم المقرب كصرف انتهازى :

إذا كان هذا الخطأ العرضى الذى دفع المنفقون الوطنيون وشعوبهم ثمنه غاليا قد بدأ يتجاوز نفسه بنفسه على مستوى الواقع العلى والمادى المعاش على نحو ما سبق ذكره ، إلا أنه ما يزال مقلوبا على رأسه تماما فى أذهان غالبية المثقفين عموما وفى مفاهيمهم النظرية والسطحية بوعى منهم أو بدونه ، فالكثير منهم ممن يتربعون على قمة السلطة أو يقفون على مقربة منها فى هذا البلد أو ذاك ، ويقومون بأدوار كلاب الحراسة فى خدمة مصالح الامبريالية العالمية والاحتكارات الدولية فى الخارج داخل شعوبهم ، والمصالح البرجوازية والكمبرادورية الطفيلية التابعة لها فى الداخل ، وبدوافع انتهازية خطيرة ترقى الى مستوى الخيانة الوطنية لسيادة وحرية شعوبهم ، فانهم مع ذلك لا يترددون لحظة بوعى منهم أو بدونه عن الحديث والتغنى بأمجادهم القديمة أيام كانوا تلاميذ فى المدارس ، أو قادة نقابيين وسياسيين يوزعون المنشورات ، ويكتبون فى الصحف ، ويعقدون المهرجانات ويقودون المظاهرات فى الشوارع ، وهم يهتفون ضد الاحتلال ويتغنون بمطالب الاستقلال السياسى ونشيد العلم الوطنى الذى حققوه فى النهاية ، وأهدوه الى شعوبهم التى يعيشون معها اليوم فى ظله وتحت لوائه « فى ثبات ونبات » وأنهم ما يزالون على نفس العهد ومأضون فى نفس الطريق !!

وهنا تتأكد حقيقة أن النزعة الوطنية فى المجتمعات النامية - كما يقول بوتومورو - هى نتيجة الصراع من أجل تحقيق الاستقلال عن الحكام الأجانب ... واذن فليس من الغريب فى شيء أن نجد فى معظم المجتمعات النامية حزبا واحدا قاد بنجاح حركة الاستقلال ، تم جعل من نفسه صفوة حاكمة تبرر قوتها بالنظر الى أمجادها الماضية والوعود التى تقدمها لبناء أمة حديثة (٢٩) .

كما يعملون فى نفس الوقت وبلا كلل على اقناع شعوبهم - أو تضليلها على الأصح - بالحديث عن عظمة ما أنجزوه من تحرر سياسى مزيف وما حققوه من انجازات اقتصادية واجتماعية وهمية لصالحها كل يوم بلا خجل ، وأنه

ما عاد هناك من عمل وطني يعمل ولا مهمة حضارية أو اجتماعية أو سياسية يمكن المطالبة بها ، غير التصدى للأفكار المستوردة ، ومجاربة الخطر الشيوعي ، والتحلى بالأخلاق الحميدة والصبر عند المكاره والقناعة بما قسم ، والله يرزق من يشاء بغير حساب !!

ذلك أن الحادث - كما يقول الدكتور الجوهري - في الغالب وكما هو متوقع ألا يتحول هؤلاء الأفراد الى مدافعين عن قضية التقدم والتنمية الاجتماعية . ذلك أن انتماءهم الأصلي ثم مجيئهم من بيئات مستقرة ماديا ، وكذلك تبعيتهم للسلطة السياسية التقليدية التي لا تسعى الى تشجيع الجديد ، كل ذلك يقلل من حماسهم للقضايا العامة ، ولا يجعل من عملهم الجديد وسيلة لخدمة المجتمع الكبير ، ولذلك تقتصر حياتهم على الاندفاع نحو الاستهلاك باسراف ، الذي تيسره لهم دخولهم العالية من الأراضي الزراعية أو المضاربات وأعمال السمسرة ، أو الاقتصاص على المشاركة الروتينية المحافظة في النشاط السياسي العام « دون برنامج محدد ، أو دون مطامح ثورية ان شئنا الدقة » وقد نجدهم يقتصرون على ادارة المشروعات الصناعية أو التجارية الجديدة ، ولو ادارة اسمية « من خلفهم جيش من الخبراء المحليين أو الأجانب » (٣٠) .

وهذا هو طراز الفهم الطبقي الجديد لمنفى البرجوازية الكبيرة والكمبرادور المحلي والدولي الذين يديرون مصالحها من قمة السلطة والذي يمارسونه بوعي كامل في قرارة نفوسهم سرا ، ويؤطرونه علنا بكل تلك التصرفات الانتهازية الخطيرة ، والأكاذيب والاشاعات المضللة الفاسدة ، والتي بالرغم من كل ما أحدثته من مضاعفات سياسية واقتصادية واجتماعية لبعض الوقت ، الا أنها لم تعد تقوى على الحيلولة دون كشف حقيقة الاستغلال الكسيع ، وتعميق مظاهر الاستغلال والتبعية الاقتصادية والسياسية في الخارج ، وتكريس الأوضاع المتخلفة في الداخل .

كما أنها لم تعد تقوى أمام متغيرات الظروف والتطور التاريخي على اخفاء ما تسببت فيه وما تزال تتسبب فيه أبواقها المضللة والكاذبة من افساد حقيقي للرأى العام والذوق والثقافة الوطنية وبديهيات العقل والمنطق

(٣٠) د محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ،

والتي يعون هم حقيقة زيفها قبل غيرهم ، الا أنهم لم يستغنوا عنها بعد
كتصرف انتهازي ضحل من أجل خدمة مصالحهم السياسية والطبقية الحقيقية
المرتبطة بحالة التخلف والتبعية . فهناك عامل - كما يقول بوتومورو
أيضا - يجعل من النزعة الوطنية في حد ذاتها مذهباً غامضاً بالنسبة
للحكام السياسيين للدول النامية هو أنها قد تنطوى على نظرة تراجعية
وقد تسعى الى احياء النظم والصفوات التقليدية . . . والمثال الكلاسيكي على
هذا النمط من الأحداث هو احياء الهندوسية في الهند (الاعنف) تلك
الحركة التي طورها واستخدمها غاندى في اقامة حركة جماهيرية لمعارضة
الحكم البريطاني . ونستطيع أن نجد أمثلة أخرى في الأقطار العربية ،
وباكستان ، بل وحتى في بعض أجزاء افريقيا (٣١) .

ويمكننا أن ننظر الى حركة الثورة الإيرانية باعتبارها تقدم أحدث دليل
على هذا النمط من النزوع الوطني التراجعي ، وان كان الشيء الذي
تتميز به عما ذكره بوتومورو هو كونها لم تحارب محتلاً أجنبياً مباشراً
ولكنها أسقطت حكم فرد دكتاتور مستبد وعميل للغرب بمضمون وأفق
سياسي ووطني يشكل خطوة متقدمة أكثر بالنسبة لما قبله وواقعه الراهن ،
الا أن الافق المستقبلي ما يزال محفوف بالخطر نتيجة لوجود هذا النمط من
النزوع الوطني الغامض الذي تحدث عنه بوتومورو والذي هو في طريقه
لأحكام قبضته على السلطة في إيران ما لم تجد تطورات وتحولات اقتصادية
 واجتماعية وسياسية جذرية .

وهكذا نتأكد حقيقة أن هذا الطراز من متقفى الاقطاع والبرجوازية
والذى بدأ يمارس مهمته الطبيعية من خلال السلطة أو من خارجها لم يكن
حرصه على الاستمرار في الصاق المفاهيم المغتربة بنفسه لنوطنية والحرية
والديمقراطية والثقافة والدين والشيوعية . . الخ ، والاصرار على تكريسها
في الواقع بطرق مشوهة ومنحرفة ، لم يكن كل ذلك نابع عن اغتراب حقيقي
في نفوسهم أو جهل بحقيقة وضعهم الطبقي والتفاني الجديد ، بقدر ما أنه
قد أصبح تصرفاً انتهازياً خطيراً وواعياً دفاعاً عن مصالح طبقية واجتماعية
معينة ، يجب الكشف عنها وتعريضها بلا هوادة (٣١)

(٣١) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ١١٦ و ١١٧ .

(٣١ مكرر) راجع بصفة عامة لينين : كتاب « ما العمل » - دار التقدم موسكو .

(ب) الفهم المقرب كجزء من البقاء والدفاع عن النفس :

وهناك طراز آخر من الفهم المقرب ما يزال يعشعش بين طراز آخر من المثقفين في البلدان النامية والمتخلفة ، خصوصا ما يتعلق منهم بذلك النوع البرجوازي الصغير المنتشر بين صغار وكبار الموظفين الإداريين والفنيين في أجهزة السلطة والمؤسسات والوكالات التجارية المحلية والأجنبية الخاصة والمختلطة ، والتي بالرغم من أنها قد أصبحت هي التعبير المادى والمعنوى لوجودهم ، كما صاروا هم كذلك يشكلون العمود الفقري لوجودها وضمان استمرارها أيضا ، إلا أنهم من الناحية الشكلية وبروح استلابية مغتربة ينكرون على أنفسهم ذلك ، بل ويصرون بدافع الحفاظ على توازنهم النفسى المنهار بين ما يعلنونه شكلا ، ويمارسونه فعلا وموضوعا ، يصرون على أنهم كانوا وما يزالوا يشكلون بأفكارهم ومفاهيمهم الخاصة المدخل الوحيد لمبادئ النضال الوطنى والتقدمى بكل مقاييسه ومضامينه المختلفة ، من أجل تغيير الواقع الراهن نحو الأفضل ، وأنهم وحدهم القادرون على تحديد مهامه وإدارة شئونه ، بل وتحقيق أهدافه النهائية فى يوم ما وبطريقة ما ، وتقديمها للواقع الاقتصادى والاجتماعى المتخلف كما تقدم الهدايا الثمينة فى الاحتفالات المهيبة .

ولذلك لا ندهش - كما يقول الدكتور الجوهري - عندما نجد أبناء جماعات الصفوة الجديدة يستشعرون فى قرارة أنفسهم التفوق على سائر فئات المجتمع ، وهو شعور باعتقادهم بأنهم أقدر على رؤية مستقبل الجماهير العريضة وتقدير مصالحها من خلال ما حصلوه من تعليم عصرى وما اكتسبوه من خبرة ، ولذلك يسعون الى التحلل من أداء الوظائف الجزئية (٣٢) .

ولقد كان لينين ثاقب النظرة وشديد الحساسية لهذا الطراز من المثقفين وكان يصفهم بالميوعة ويعتبر أن مجرد وقوفهم على الحياد ضمن علاقة حسن جوار بالنسبة لقضية النضال الثورى يكفى جدا ، أما اذا قبلوا بتنفيذ بعض المهام الثورية المحددة فان ذلك يعد عملا عظيما ، كما أن لينين لم يكن يخفى أبدا احتياج طبقات الشغيلة والمنتجين لأفكار ومعارف هؤلاء المثقفين فى نضالهم ، الا أنه يؤكد بثقة أن السند المكين للنضال يكمن فى جماهير هذه الطبقات وليس فى هذا الطراز من صفوات المثقفين ، ملخصا كل ذلك بقوله مخاطبا لهم : ان سئدنا مكن ، ونحن لم يخامرنا الشك يوما

فى ميوعتكم ورخاوتكم ، أما أنا بحاجة اليكم فهذا ما لا ننكره لأنكم كنتم
العنصر المثقف الوحيد (٣٣) .

ومن واقع هذا الفهم البرجوازى المشبع بالمثالية المسرفة يستمد هؤلاء
المثقفون شرعية استمرار تسلطهم ووصايتهم على التنظيمات السياسية الوطنية
والنقابية والجماهيرية المختلفة ، ويشكلون القناة شبه الوحيدة لصياغة
وتوصيل المفاهيم والأفكار النضالية والتقدمية الى كل تلك الطبقات
والمؤسسات الواقعة فى أسفل السلم الاجتماعى ، من عمال وفلاحين وجنود
وتجار صغار وطلاب ٠٠ الخ ، بعد أن يصبغوا عليها طبيعة شخصيتهم
ومزاجهم الخاص . يساعدهم فى ذلك طبيعة الواقع المتخلف سياسيا وثقافيا
للك الطبقات والمؤسسات الجماهيرية والذي ما يزال غضا من ناحية ،
والاستفادة المشروعة من مبدأ التقدم فى العمل الوطنى الذى اكتسبوه
فى هذا الشأن بمرور الوقت من ناحية أخرى ، اضافة الى وجود رغبة خفية
ولا واعية على الأقل فى الحرص على هذا الوضع والدفاع عنه كجزء
من الحرص على بقاء بعضهم ممن تجاوزتهم الظروف أو تخلفوا عنها على
الأصح ، وصار التمسك بهذه الأنماط والمفاهيم المغترية والخاطئة فى العمل
السياسى والوطنى ورؤية الواقع نفسه جزءا من التمسك بوجودهم نفسه
والدفاع عنه ورغبتهم فى التغاضى عن حقيقة واقعهم الى هذا الحد أو ذاك .

وهكذا تتأكد الحقيقة الثانية بالنسبة لهذا الطراز من المثقفين
البرجوازيين الصغار بأن ميلهم الى الفهم المغترب للقضايا السياسية
والاجتماعية والوطنية ليس فهما واعيا أو تصرفا انتهازيا ١٠٠٪ كما هو الحال
بالنسبة لمن قبلهم من مثقفي الطبقات الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة
والرجعية ، بقدر ما أنه نابع من أصول تربية سياسية وفكرية قديمة خاطئة
من ناحية ، ويجد البعض منهم - حتى بحكم تقدم العمر والمراهقة الجديدة -
صعوبة بالغة فى القدرة على تجاوزها بسهولة ومجاراة المتغيرات التاريخية
الجديدة ، كما يرفضون - بحكم تربيتهم أيضا - الاعتراف بذلك ، ويميلون
بدلا منه الى التمسك بمواقعهم التى وقف بهم الزمن عندها لسبب أو لآخر ،
كجزء من الدفاع عن بقائهم نفسه الذى صار اغترابا فى الأساس ، ومحاولة
جعل كل شئ يدور حول هذا الموقف المغترب والمتذبذب والمريض وغير
المستقر .

انهم باختصار - كما يقول عدد من الباحثين السوفييت - لم يعد لديهم استعدادا كافيا للتجاوب مع ارادة الجماهير التي تزداد وضوحا وتهدف الى بناء الاشتراكية فى الوقت الراهن وفى مرحلة الانعطاف الاجتماعى الشديد الذى يجرى فى عدد من البلدان المتحررة فى آسيا وافريقيا ، وعلى هؤلاء المثقفين أن يختاروا اما الوقوف مع الشعب فى سبيل الاشتراكية واما مناهضة المستقبل الاشتراكى أى تفضيل الطريق الرأسمالى فى التطور (٣٤) .

(ج) الحقيقة بدلا من الاغتراب :

وهناك طراز ثالث جديد ومتطور من الفهم السائد بين مثقفى البلدان النامية والمتخلفة ، أو على الأصح طرازا جديدا من المثقفين الاشتراكيين التقدميين ، ترجع نشأته وتكوينه الى مراحل لاحقة جدا بالنسبة لمن قبلهم ، بل ربما أنه ما يزال فى مرحلة التكوين من خلال بعدين اجتماعيين رئيسيين ، الأول من خلال تحول جذرى حاسم فى حياة البعض من أولئك الذين أضنتهم حياة الاغتراب والصراع النفسى والتهميش الاجتماعى والفكرى بين ما يفترضونه فى نفوسهم ويطمحون اليه ، وما يعيشونه ويمارسونه فى واقعهم العملى ، وبالذات مجموعة الطراز الوسطى أو البرجوازى الصغير الذين سبقت الإشارة اليهم فى النقطة السابقة ، حيث يتجه البعض منهم بحزم من أجل الخلاص من وضعهم الاغترابى الممزق بحثا عن الواقع والحقيقة التى يوفقون فيها بين الشكل والمضمون فى حياتهم الخاصة والعامة .

وذلك اما صعودا الى أعلى بمفاهيمهم البرجوازية الصغيرة والبرالية والوطنية نحو ذلك الطراز الأول من الفهم الذى أصبح واضحا لدى مثقفى الطبقات الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة والكمبرادور والقوى الرجعية بعامة فى المجتمع ، ويوفقون بذلك بين الشكل والمضمون فى حياتهم ، أو المفاهيم النظرية والممارسات العملية ، شأنهم فى ذلك شأن سابقينهم ممن سبقت اليهم الإشارة ، وتزداد مفاهيمهم عمقا ومواقفهم وممارساتهم جرأة فى هذا الاتجاه المضاد ، ويحصلون على امتيازات ومكاسب أكثر فى ظل الأوضاع الراهنة .

(٣٤) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقي فى البلدان النامية ،

وأما هبوطا الى أسفل حيث يغادرون واقعهم المادى والموضوعى القائم بجراة وجدية أيضا بحثا عن واقع اجتماعى وموضوعى آخر يتوافق ونوع طموحاتهم ومفاهيمهم اللبرالية والوطنية فى نطاق الفئات والطبقات الشعبية المهورة فى المجتمع ، من عمال وفلاحين والمنظمات الجماهيرية والنقائية المختلفة ، ويوفقون بذلك أيضا بين مفاهيمهم النظرية وممارساتهم العملية والموضوعية ، وتزداد مفاهيمهم عمقا ونضجا ، وممارساتهم أكثر فاعلية وتأثيرا فى الاتجاه الوطنى والتقدمى الموجب . مكونين بذلك البعد الأول لما نسميه هنا بالطراز الثالث والجديد من مثقفى البلدان النامية والمتخلفة . أما البعد الرئيسى الثانى لهذا الطراز الجديد من المثقفين الوطنيين فهو لايهبط من أعلى بقدر ما هو آخذ فى التبلور والنشوء من أسفل ومن أوساط الطبقات الشعبية والفئات الجماهيرية نفسها ومؤسساتها المختلفة من عمال وفلاحين وصغار الموظفين والجنود والطلبة ، وغيرهم من قوى التحالف الوطنى فى المجتمع .

خصوصا بعد أن بدأت هذه الطبقات والمؤسسات الجماهيرية تمسك بزمام المبادرة المباشرة فى طرح مطالبها وطموحاتها بنفسها فى كثير من الحالات فى مواجهة القوى المعادية فى الداخل والخارج ، ولم يعد موقفها هامشى كما جرت العادة منذ ما قبل الاستقلال وبعده بقليل ، أو مجرد صدى وتلبية لنداءات العناصر السياسية الوطنية من وقت لآخر وعلى ضوء تقديراتها الذاتية .

حيث تغيرت مقاييس الوعى فى أوساط هذه الطبقات والفئات نحو الأفضل ، وبالذات طبقة الفلاحين التى تكون الغالبية العظمى من سكان هذه المجتمعات التى بدأت تدخل بثقلها كطرف مباشر فى سير الأحداث السياسية والاجتماعية بصورة مباشرة وغير مباشرة (٣٥) . حيث بدأ يظهر بين أفراد هذه الطبقة وغيرها عناصر تتمتع بوعى طبقي حقيقى ، مكونين مع تلك العناصر الهابطة التى سبقت الإشارة إليها نمطا جديدا من المثقفين الوطنيين هو بمثابة الحليف الحقيقى للنضال الطبقي التقدمى ومضامينه التاريخية والعلمية والتقدمية الجديدة فى مواجهة كل البناءات والمؤسسات الطبقية والاجتماعية القومية .

(٣٥) يمكن اعتبار الثورة الايرانية والحركة الثورية فى نيكراجوا وبوليفيا ، هى أول البوادر الجديدة . لحركة الشعب المباشرة ضد أعدائه الطبقيين فى الداخل على طريق التحرر الاقتصادى والاجتماعى الشامل .

ولقد أشار بوتومورو الى أهمية الأصول الطبقيّة والاجتماعية في تكوين المثقفين الاشتراكيين والثوريين داخل الطبقات الكادحة من جهة ، والى نقاء وحياد وعالمية الأفكار التقدمية والاشتراكية كعوامل جذب للمثقفين الاشتراكيين والتقدميين أيضا من خارج الطبقات الكادحة وخصائص حيوية للحياة الفكرية ذاتها ، اذ يقول : ان انجذاب المثقفين نحو الحركة الاشتراكية راجع الى أنهم يجدون فيها النقاء والحيادية والعالمية وهي خصائص تعد حيوية للحياة الفكرية ذاتها • وثمة عامل آخر يحتل نفس الأهمية - وربما يفوق أهمية ما سبق - وهو الأصول الاجتماعية للمثقفين (٣٦) •

الفصل الثالث

أنماط التشوهات الاقتصادية والثقافية في البلدان النامية

في كل الصفحات السابقة - تقريبا - من هذا البحث تم تحليل الكثير من مظاهر العلاقات الخاصة بفئة المثقفين وانتماءاتهم الطبقية وما تعرضت له من متغيرات سياسية واجتماعية حديثة ، وبدأ تحليلنا لكل ذلك بصورة تميل الى الرتابة شبه الآلية ، والتي توحى بالتعميم المطلق على معظم المجتمعات النامية والمتخلفة موضع الدراسة .

فهل نستطيع أن نحكم بأن الأحداث التاريخية المعاصرة في كل هذه المجتمعات قد جرت على هذا النحو وما تزال وبلا مميزات أو خصوصيات جزئية أو استثناءات على الأقل ؟ سواء بالنسبة لفئة المثقفين أو غيرهم من الفئات والطبقات الاجتماعية من مجتمع لآخر أو من قارة لأخرى ؟؟

هذا ما لا نميل الى الأخذ به ، ونرغب في تحليله من خلال صفحات هذا الفصل . وإذا كان لابد وأن نتذكر دائما بأن كل الأبعاد النظرية والتحليلية الأكثر شمولاً وعمومية والتي سبق الأخذ بها في مجمل التحليلات الاجتماعية والطبقية السابقة بالنسبة لفئة المثقفين أو غيرهم ، هي القاعدة العلمية والموضوعية الأكثر صدقاً ، وتطابقاً مع ايقاعات التطور التاريخي والجدلي في الطبيعة والمجتمع ، الا أن حالات نمطية واستثنائية معينة وربما عرضية مؤقتة ، تستطيع أن تفرض نفسها من وقت لآخر وتؤثر تأثيراً ملحوظاً وعميقاً على الايقاع الصحيح للتطور التاريخي والجدلي ، وتحد من فاعليته الايجابية ، وهي عادة ما تبدو أشبه ما تكون بحالات التشوه المرضي الذي يصيب الجسم الصحيح فيفسد شكله ونموه انطبعي ويحد من حركته وعطائه المادي والمعنوي .

فلقد لاحظنا في كل الصفحات السابقة بأن كل الظروف الخاصة والعامة التي أدت الى كيفية نشأة وتكون المثقفين في البلاد النامية وطبيعة انتماءاتهم وعلاقاتهم الطبقية ، ودورهم السياسي والاجتماعي ، هو ضرب

من حالات التشوه المرضى هذه على مستوى البلدان النامية والمتخلفة بصفة عامة في ظل علاقات الغزو والسيطرة الاستعمارية .

وستقوم في هذا الفصل بتحليل أكثر عمقا لنماذج وأنماط محددة من هذا التشوه ، قد يختلف شكلها وفاعليتها ومضمونها من مجتمع لآخر ، أو من قارة لأخرى على امتداد هذه المجتمعا نفسها ، في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وصولا الى تحديد السمات والمميزات المختلفة لأشكال التشوه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي أصاب هذه المجتمعات في ظل الغزو والسيطرة الاستعمارية القديمة ، والتبعية السياسية والاقتصادية الحديثة ، من مجتمع لآخر أو من قارة لأخرى على الأقل ، والتي أسفرت في مجملها عن تشوهات مختلفة في البناء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي (الطبقي) بما في ذلك بناء فئة المثقفين التي تشكل النقطة الأساسية لموضوع هذا البحث .

التشوهات الاقتصادية :

إذا ما تذكرنا بأن مربط الفرس في حركة الغزو والسيطرة الاستعمارية القديمة والامبريالية الجديدة هو دائما الابتزاز والنهب الاقتصادي للشعوب النامية والمتخلفة ، فاننا سوف لن نقوى على الامساك بالمدخل الصحيح لتفسير دلالة الافساد والتخريب والتشويه الرهيب الذي ألحقته هذه الحركة باقتصاديات هذه الشعوب منذ مطلع القرن السابع عشر وحتى اليوم فحسب ، بل اننا سوف نمسك بالمدخل الصحيح لكل دلالات التشويه والتخريب والافساد الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي كان ولا يزال مشروطا ولازما لاكمال عملية التشويه والتخريب والنهب الاقتصادي ، وصولا الى تكريس كل دلالات التخلف التي تعاني منها هذه المجتمعات في الوقت الحاضر ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، ذلك أن التخلف - كما يقول رودولفو استافنهاغن - هو كما نعرفه الآن نتيجة انغراس الرأسمالية في المجتمعات غير الصناعية وهو يبدو سمة أساسية من سمات النظام الرأسمالي (١) . ويضيف قوله : بأن البنى التقليدية ليست في حد ذاتها علامة على التخلف ، فهذه البنى تميل الى أن تصير متخلفة فقط في حال اندراجها في النظام الرأسمالي الجديد (٢) .

(١) رودولفو استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الزراعية ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٧ .

وحتى لا نضطر الى الدخول فى تفاصيل موضوع هذه الحقيقة التى أصبحت شبه بديهية عوضا عن كونها لا تشكل جوهر ما نقصده من هذا البحث ، فاننا نستطيع أن نجعل هذه التشوهات الاقتصادية فى نقاط محددة ، ونبين مدى خطورتها وما وصلت اليه من نتائج سلبية مخيفة ، خصوصا اذا ما تذكرنا بأن عملية غرس وتكريس هذا التشويه والتخريب قد بدأ منذ ما يقرب من ثلاثة قرون كاملة وحتى الآن ، حيث يمكن تحديد أبرز مظاهر هذا التشوه وأكثرها شيوعا من الناحية الاقتصادية بصفة عامة فى النقاط الآتية :

(أ) تدمير الاقتصاد القومى المنتج والمستقل الذى كان سائدا قبل الغزو ويحقق الاكتفاء الذاتى فى الداخل ، مع تحقيق فوائض مصنعة وغير مصنعة للتصدير الى الخارج ، وتحويله الى اقتصاد استيراد سلعى مستهلك غير مستقل وتابع للخارج ١٠٠٪ فى كثير من الأحيان (٣) .

(ب) تحويل استثمار مصادر الثروة القومية والطبيعية فى هذه المجتمعات من حالة تكامل مرتبط ومتجه الى الداخل الى استثمار متخصص بصفة مطلقة ووحيدة الجانب تقريبا ومرتبطة نهائيا بمناطق التصنيع فى الخارج ، بالنسبة لكل مجتمع على حدة تقريبا . فمصر تنتج القطن لمصانع الغزل والنسيج الانجليزية بمانشستر ، والجزائر تنتج الكروم لمصانع النبيذ والمشروبات الروحية بفرنسا ، والبرازيل تنتج البن ، وبلدان شرق آسيا وجنوبها المطاط والشاي ، وحتى الوقت الحاضر يمثل الكاكاو الانتاج الرئيسى المصدر للتصدير فى غانا ونيجيريا ، وتوجو والكمرون ، وكذلك هى الحال بالنسبة للمطاط فى ليبيريا ، وفسدق العبيد فى السنغال ، والبن فى غينيا وساحل العاج وكينيا وأوغندا (٤) وهكذا .

ثم القيام بعملية ابتزاز ناتج هذه الاستثمارات فى شكل مواد خام بأثمان بخسة وشبه مجانية .

(ج) الحيلولة دون احداث صناعات حديثة بعد تدمير كل أشكال الصناعات التقليدية ، والاكتفاء بتحويل كل مجتمع على حدة الى مجرد سوق مفتوحة للسلع الاستهلاكية المصنعة فى مناطق « المتروبول » فى أوروبا

(٣) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقي للبلدان النامية . ص ٤٤ .

(٤) رء استفهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية . ص ١١١ .

كمصدر وحيد وملزم بالضرورة للحصول على مثل هذه السلع الاستهلاكية التي أصبحت ضرورة ، بما فى ذلك المواد الغذائية بأثمان باهظة • فبعد أن كانت أوروبا بصفة عامة وانجلترا بصفة خاصة تستورد من التوابل والمنسوجات من الهند أثناء القرن الثامن عشر وما قبله فانها - أى انجلترا - قد استطاعت - كما يقول بول بايرونك - أن تجبر الهنود منذ العام ١٨١٣ على شراء المنسوجات القطنية التى كانت تشحن من ميناء « ليفربول » وتصنع فى مصانع « لانكشستر » بانجلترا حيث كان الأطفال يشتغلون ١٦ ساعة فى اليوم ، وحيث بلغ ما تحصل عليه بريطانيا من قيمة هذه الصادرات عام ١٨٥٦ عشرة ملايين جنيه استرلينى ، والذي لم يكن يتجاوز خلال القرن الثامن عشر المليون جنيه استرلينى ، وقفز هذا الرقم عام ١٨٦٧ الى عشرين مليون وبلغ عشية الحرب العالمية الأولى سبعين مليوناً بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ التى اختزلت المسافة بين لندن وبومباي بنسبة ٤٠٪ وما لبث أن أدى كل ذلك الى زوال كامل تقريباً للصناعة الحرفية المحلية وعرقل بشدة نشوء صناعة حديثة (٥) •

حيث تحولت بدلا من ذلك أسواق الهند وغيرها من المجتمعات الآسيوية والافريقية الى مجرد أماكن لتجميع المواد الخام المختلفة التى كانت وما تزال تبتزها السلطات والشركات الاستعمارية بلا مقابل فى البداية ، أو بأثمان بخسة فى الوقت الحاضر ، واللازمة لمختلف الصناعات الآلية الحديثة فى مراكز « المتروبول » فى أوروبا •

فلقد أبدى الرأسماليون دائماً - كما يقول استافنهاغن - عدائهم لاقامة صناعات محلية تتيح المجال لتحويل المواد الأولية حيث هى موجودة ، فتساهم فى اثراء البلاد ، وكان من شأن هذه المنجزات فيما لو تحققت أن تؤدى الى ضرب احتكارات الشركات التجارية (٦) •

(د) اقامة العديد من المرافق الاقتصادية من موانئ ومطارات وسكك حديدية بالذات وفق تخطيط لا يخدم مطلقاً ترابط المجتمع اقتصاديا والاجتماعيا فى الداخل ، بقدر ما يسهل فى الأساس عملية الربط بين مصادر المواد الخام فى المناجم والمزارع وموانئ تصديرها من جهة ومراكز

(٥) بول بايرونك : مآزق العالم الثالث ، ص ١٠٧ •

(٦) ر • استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٦٣ •

توزيع السلع التجارية المستوردة من جهة أخرى . ان هذه المرافق قد بنيت - كما يقول بايرونك - بشكل يشبه القمع المتجه الى الخارج ، وليس الشبكة التى يبدأ مركزها وينتهى فى اتجاه الداخل (٧) . ولقد أشار ماركس الى هذه الحقيقة فى عام ١٨٥٣ قائلا : اننى أعرف جيدا أن الرأسمالية الانجليزية لا ترغب فى أن تهب الهند خطوطا حديدية الا لكى تحصل على المواد الأولية التى تحتاجها مصانعها (٨) .

التشوهات الطبقيّة والثقافية :

ولكى تؤدى عمليات التشويه والتخريب الاقتصادى كل النتائج المرجوة منها فى تكريس السيطرة والاستغلال الاقتصادى ، فلقد لزم اجراء عدة أشكال مختلفة من التشويه والتخريب الاجتماعى والثقافى والسياسى والطبقي الموازى بالضرورة لعمليات التخريب والتشويه الاقتصادى بطريقة أكثر خطورة ووحشية ، حيث يمكن رصد أبرز مظاهر هذه التشوهات الاجتماعية والثقافية باختصار فى النقاط الآتية :

(أ) مسح الوجود القومى والحضارى لكثير من الشعوب والمجتمعات عن طريق الحرب والابادة الجسدية ، والقيام بعملية تستطيع مجتمعات « كولونىالية » جديدة قادمة من الخارج على أنقاض بقايا المجتمعات القديمة التى تحولت الى أقليات اجتماعية وقومية محاصرة فى مناطق جغرافية وسكنية محددة سلفا ، وفى ظل ظروف معيشية لا انسانية . الأمر الذى حدث فعلا بالنسبة لمعظم المجتمعات الحضارية الهندية القديمة فى أمريكا الشمالية والجنوبية على السواء ، واستراليا ومناطق الاستيطان العنصرى فى جنوب افريقيا والصهيونى فى الشرق الأوسط .

(ب) افساد الأوضاع الثقافية والفكرية والحضارية أيضا للمجتمعات الأصلية ، والقيام بعملية حجبتها وتهميشها بكل الوسائل ، وفرض أنماط محددة ومخططة سلفا من الثقافة والمدنية الأوروبية التى اتابها الغزاة ، بما يحقق الإيقاع المطلوب لعمليات الفساد والابتزاز الاقتصادى والسيطرة السياسية ، خصوصا فيما يتعلق باللغة والتشريع وعلاقات الملكية ، وهو الأمر الذى ينطبق على ما حدث لمعظم مجتمعات القارة الافريقية التى

(٧) بول بايرونك : مازق العالم الثالث ، ص ١١٣ .

(٨) المرجع السابق ، ص ١١٢ .

صارت تعرف اليوم بالناطقة بالفرنسية أو الانجليزية أو غيرها ، اذا ما استثنينا الدول العربية بشمال وشرق القارة التي أفلتت من هذه القضية الى حد ما .

(ج) القيام بعملية افساد وتعديل نمط الاستهلاك الاقتصادي للطبقات الاقطاعية التقليدية المسيطرة قبل الغزو في معظم هذه المجتمعات بصفة عامة وهي مجتمعات القارة الآسيوية بالذات ، وتحويله من انفاق محدود للقوت متجه الى الداخل مائة في المائة (١٠٠٪) الى انفاق للترف متجه الى الخارج ١٠٪ تقريبا (الحصول على السلع الكمالية والاستهلاكية المصنعة في الغرب) دون أن يغير شيء من أوضاعها السياسية والاجتماعية والعشائرية أو نمط تفكيرها الايدلوجي والفكري المتخلف ، بقدر ما زاد من تضخيم هذه الأوضاع وباركها ودافع عنها . بعد أن صارت أكثر تخلفا من ذي قبل . فهذه البنى التقليدية - كما يقول استافنهاغن - قد لا تكون في حد ذاتها علامة على اتخلف بالضرورة بقدر ما أنها تميل الى أن تصبح متخلفة فقط في حال اندراجها في النظام الرأسمالي الجديد ، وأكثر من ذلك أن الرأسمالية القادمة من الخارج تعززها وتقويها ، وهذه حالة بعض الطوائف في الهند ، والاقطاعات في افريقيا واندونيسيا والأنظمة السياسية والاستبدادية في أمريكا اللاتينية ، والنزعات القبلية التي تثيرها الدول الكبرى الاستعمارية في افريقيا(٩) .

(د) التركيز الشديد على خلق طبقة أو شريحة جديدة من البرجوازيين والوسطاء التجاريين والكمبرادورين المحليين ، للقيام بمساعدة المستثمرين والمضاربين الدوليين في مراكز المتروبول على توزيع بضائعهم وحتى أرباحهم الطائلة من جهة ، والحصول على ما قد يحتاجونه من المنتجات الزراعية والمواد الخام اللازمة لتلك الصناعات المركزة في الخارج ، مقابل الحصول على مداخل طفيلية من عمليات الوساطة والسمسة هذه التي يتسع نطاقها يوما بعد يوم ، خصوصا بعد الغياب المباشر للسيطرة الأجنبية وفي ظل الاستقلال السياسي المزيف في الوقت الحاضر .

(هـ) القيام بعملية تقسيم اداري وجغرافي مشوهة لمواطن هذه المجتمعات ، لا وفقا لطبيعة تكوينها القومي وبما يحافظ على وحدتها الوطنية.

(٩) ر . استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الزراعية . ص ٧ .

بل بما يضمن اضعاف وتمزيق هذه الوحدة نفسها ، ويسهل مهمة الادارة الاستعمارية ويحقق أغراضها السياسية والاقتصادية . وهو الأمر الذى أدى الى افتقاد كثير من هذه المجتمعات لوحدها الوطنية والقومية ، وأورثها الكثير من المشاكل السياسية والاقتصادية الحادة بعد الاستقلال الذى كان يعطى لها على أساس ذلك التقسيم الجغرافى والسياسى المشوه . والوطن العربى الذى تم تقسيمه الى عدة مستعمرات قبل الاستقلال وتحولت هذه المستعمرات الى دويلات بعد الاستقلال وما تعانيه هذه الأمة من التمزق السياسى وسوء التكامل الاقتصادى والاجتماعى حتى انيسوم من جراء ذلك وإلى أجل غير مسمى ، كل ذلك يقدم أفضل دليل على ذلك لأكثر من مثل فى أكثر من منطق من العالم (باكستان الشرقية والغربية - كوريا الشمالية والجنوبية - جنوب السودان - شمال العراق - فيتنام الشمالية والجنوبية - الصين الشعبية والوطنية . الخ) .

نتائج التشويه فى كل من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية :

ومن خلال كل عمليات التشويه والتخريب الاقتصادى والاجتماعى هذه وبفعلها يمكننا أن نستخلص عدة نتائج مباشرة وغير مباشرة تمخضت جميعها عن هذا التشويه والتخريب الذى طال به الزمن ، فالى جانب النتائج المباشرة التى فقدت بموجبها العديد من المجتمعات وجودها القومى والحضارى والثقافى نفسه على نحو ما سبق فإن نتائج أخرى غير مباشرة وإن كانت أقل خطورة نسبيا لهذا التشويه قد شملت هذه المجتمعات نفسها وغيرها من المجتمعات التى صارت اليوم تعرف بالمجتمعات النامية والمتخلفة فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، والتى سنحاول أن نستخلص هذه النتائج فى كل منطقة على حدة نظرا لكل المقدمات والنتائج التى تتميز بها كل منطقة عن المنطقة الأخرى .

فى آسيا وشرق وشمال إفريقيا :

لقد كان نجاح الادارة الاستعمارية فى افساد وتعديل نمط المعيشة والاستهلاك الاقتصادى للطبقات والأرستقراطيات القطاعية فى المجتمعات الآسيوية من انفاق للنفوت متجه للداخل الى انفاق للترف متجه للخارج ، دون أى تغيير يذكر فى أوضاعها السياسية والاجتماعية ، هو من الأمور التى أفقدت هذه الطبقات أهم خواصها التاريخية ، وهى الزهد النسبى فى الانفاق والاعتماد على المصادر الذاتية فى الداخل وعدم الارتباط بالخارج ، أو الخوف منه عادة ، والتى يمكن أن توصف بأنها خواص ايجابية بشكل ما ، فى الوقت

الذى احتفظت بكل خواصها السلبية ، كطبقات مستغلة وذات مصالح ومفاهيم رجعية شديدة التخلف ، الأمر الذى حقق ارتباطها الاقتصادى بالخارج من جهة وكرس أوضاعها السياسية والاجتماعية المتردية فى الداخل من جهة أخرى ، وتشوهد بذلك دورها السياسى وتركيبها الاجتماعى نفسه .

كما أن نجاح السيطرة الأجنبية فى خلق طبقة أو شريحة الوسطاء التجاريين والكمبرادوريين المحليين على أنقاض الصناعيين والحرفيين التقليديين ، قد أدى الى ايجاد شرائح برجوازية تجارية وكمبرادورية طفيلية مرتبطة بالخارج ١٠٠٪ ، وحال دون تكون طبقة برجوازية وطنية منتجة بالمعنى العلمى والتاريخى الذى عرفته أوروبا فى القرن التاسع عشر . وهو الأمر الذى أدى جدليا الى الاختفاء شبه التام للتعارض أو الصراع بين مصالح هذه الطبقة البرجوازية الجديدة المشوهة التركيب وبين الطبقات الاقطاعية التقليدية السابقة ، وعلى العكس من ذلك مال كلا الطرفين فى كثير من الأحيان الى التحالف فى مواجهة التيارات التقدمية والوطنية تحت تأثير حرص الطبقات الاقطاعية على استمرار مصالحها التقليدية وحصولها على استقرار مصالحها التقليدية وحصولها على احتياجاتها الاستهلاكية المترفة احتياجاتها الاستهلاكية المترفة المستوردة من الخارج كمستهلك شره ، وقيام الأخرى بعملية التوريد والاستهلاك معا (١٠) . اضافة الى كون الارتباط شبه الكلى لكلا الطرفين اقتصاديا وسياسيا فى كثير من الأحيان بالاحتكارات الامبريالية والعالمية وحرص هذه الاحتكارات على تنظيم العلاقة والتعايش بين الطرفين قد قام بدور صمام الأمن والفرملة الحقيقية لتنظيم هذه العلاقات والأوضاع الاقتصادية والسياسية والطبقية المشوهة فى مواجهة المد الوطنى والتحررى حتى الآن .

فلقد تميز سلوك الغزو والسيطرة الاستعمارية فى آسيا وبعض مجتمعات شرق وشمال افريقيا فى أنه عمل على تعديل وتكييف أوضاع هذه المجتمعات التقليدية اقتصاديا واجتماعيا بما يتناسب وطبيعة مصالحه ، والمحافظة الى أقصى حد ممكن على هذه الأوضاع نفسها كما هى ، حيث لم تقتضى هذه المصالح منه أن يمارس عملية التدمير الاجتماعية والثقافية العميقة التى مارسها فى افريقيا وأمريكا اللاتينية ، أو أن ظروفها تاريخية وحضارية معينة قد حالت دون قدرته ووصوله الى هذا الحد من الممارسة البربرية تلك ،

(١٠) راجع التركيب الطبقي للبلدان النامية ، مرجع سابق ، ص ٤٨ و ٥٠ .

خصوصاً وأنه قد وجد في طبيعة الأنظمة القائمة ذات البعد الاقطاعي والأرستقراطي المتخلف ما ساعده على تحقيق مهمته الأساسية في السيطرة والابتزاز الاقتصادي ، ولم تشكل مثل هذه الأوضاع الاجتماعية والثقافية عوائق مباشرة كبيرة أمام تلك المهمة الى الحد الذي شكلته الأوضاع الاجتماعية والثقافية الأقل ايجابية بالنسبة لأهدافه في افريقيا وأمريكا اللاتينية ، فعمد الى تدميرها بالكامل بطريقة أو بأخرى ، وذلك على نحو ما سنرى بعد قليل .

كل هذه النتائج وغيرها قد أدت مجتمعة الى تكريس حالة التخلف والتبعية الاقتصادية والسياسية المباشرة وغير المباشرة ، وخلق عوائق اجتماعية واقتصادية لا تحصى أمام امكانية احداث تنمية أو تقدم حقيقي يتجاوز بهذه المجتمعات عتبة التخلف بسهولة ما لم تقطع دابر كل صلة لها بمجتمعات المتروبول وتحقق تحررها الاقتصادي والاجتماعي من خلال تحولات ثورية وتقدمية جذرية في الداخل ، وإعادة ترتيب علاقاتها مع الخارج وفقاً لمبدأ التكافؤ والمعاملة بالمثل لا مبدأ الوصاية والتبعية .

فلقد أظهرت لنا التجربة الحديثة لتطور البلدان المتخلفة - كما يقول استافنهاغن - ان التقدم الاقتصادي الحقيقي لا يمكن أن يتم انجازه الا عندما تحدث تبدلات عميقة في البنى الاجتماعية . . وتعديل شامل في العلاقات مع الخارج . . ان التنمية الاقتصادية - ويجري الاعتراف بذلك أكثر فأكثر - ليست مشكلة تقنية ، بل هي سياسية قبل كل شيء . . انها باختصار تحتم انقلاباً في علاقات الطبقات القائمة ، وفي معظم الأحيان حلول طبقة مكان أخرى في السلطة (١١) .

تشويه المثقفين :

واذا ما رجعنا الآن الى جرثومة بحثنا الأساسية الخاصة بالمثقفين وحاولنا تتبع كل الانعكاسات المباشرة وغير المباشرة لتلك التشوهات وأنماطها المختلفة على هذه الفئة في القارة الآسيوية بالذات فاننا سوف نجد أنفسنا أمام أنماط مختلفة نسبياً من تشوهات المثقفين في كل من افريقيا وأمريكا اللاتينية على نحو ما سنرى فيما بعد .

ففى عموم آسيا تقريبا حيث لم تصب مجتمعاتها وثقافتها بكسور وجروح عميقة وانما تم تعديلها وتكييفها وتحديد حركتها بما تقتضيه متغيرات المصالح الأوربية سياسيا واقتصاديا ، نجد أن فئة المثقفين فى هذه المجتمعات قد ظلت تعبر عن وضعها الصحيح كفئة هامشية وملحقة بالأوضاع الطبقيّة المتأصلة السائدة ومعبرة عنها ، رغم افتقادها لوعيتها بحقيقة ذاتها وطبيعة دورها لبعض الوقت قبيل وأثناء مرحلة الاستقلال السياسى ، ثم ما لبثت أن استعادت هذا الوعي والاحتكام اليه بعد الاستقلال وحتى الآن مختارة وغير مختارة على نحو ما سبق تحليله فى فصل سابق من هذه الدراسة .

ولقد كانت كل الصفات والمميزات التى تتميز بها الفئة المثقفة فى المجتمعات الآسيوية عن غيرها هى ميلها قبل الاستقلال الى التخلص من أصولها الاجتماعية والطبقية لا بغرض الانتقال من طبقة لأخرى رأسيا أو أفقيا ، وانما بهدف تكوين طبقة جديدة ذات نفوذ سياسى وبعد وطنى قومى اصلاحى بشكل ما ، ولكنها فشلت بعد الاستقلال فشلا ذريعا فى تحقيق تلك المهمة التى كانوا يظنون أنها قد صارت فى متناول أيديهم بالفعل وهم يتسلمون أعلام الاستقلال ، لسببين رئيسيين ، الأول هو أن إمكانية تحول الفئة المثقفة الى طبقة متماسكة وتملك السلطة هى مسألة خاطئة تاريخيا ، ومقضى عليها لا محالة ، أما السبب الثانى فهو ان قوة التماسك الطبقي الاقطاعى والأرستقراطى العريق فى هذه المجتمعات الآسيوية وأصالته قد عجل باكتشاف هذا الخطأ وتصفيته بسرعة ، انطلاقا من الحرص على مصلحة هذه الطبقات والدفاع عنها فى الأساس .

حيث ما لبثت هذه الفئة فى المجتمعات الآسيوية التى يمكن أن نضم اليها الأقطار العربية فى افريقيا مصر والمغرب العربى الى حد ما ، أن عادت الى البحث عن هوية وانتماء مجزى اقتصاديا وسياسيا ، سواء بالعودة الى أصولها القديمة أو غيرها من التشكيلات البرجوازية والكمبرادورية الجديدة ، وفى نطاق المجتمع القومى المتجانس ، دون أن تصطدم بعوائق اجتماعية وكسور حضارية وثقافية كبيرة على غرار ما حدث فى مجتمعات افريقيا وأمريكا اللاتينية على نحو ما سنوضح بعد قليل ، اذا ما استثنينا المجتمع الهندى الذى يتميز نظامه الطبقي بفواصل وعوائق اجتماعية وثقافية ذاتية أكثر تعقيدا .

لقد تحولت اهتمامات وطموحات المثقفين فى آسيا وشمال شرق

افريقيا « مصر بالذات » من البحث عن طبقة جديدة مسيطرة الى البحث عن مواضع انتماء كامل داخل الطبقات الاقطاعية والبرجوازية المسيطرة ، والتخلي تماما عن أصولهم القديمة اذا لم تكن من هذا الطراز الاقطاعي والبرجوازي المسيطر والمجزى سياسيا واقتصاديا ، ما عدا قلة وطنية وتقدمية محدودة استطاعت أن تحافظ على التزامها القومي والوطني الثوري وتطوره من خلال البحث عن الانتماء الطبقي للطبقات العمالية والفلاحية والبروليتارية المضادة والالتزام بمصالحها وفكرها .

ومصر تقدم أفضل نموذج لهذه الحقيقة في كل تاريخها المعاصر ، حيث أنه بالرغم من مجموعة الاجراءات والتحولات البرالية والوطنية التي تمت بعد الاستقلال وقيام ثورة ١٩٥٢ والتي أتاحت حراكا اجتماعيا وطبقيا أكثر حيوية صعودا وهبوطا . من خلال مجانية التعليم واجراءات اصلاح الزراعي وشكليات التمثيل البرلماني ٠٠ الخ . الا أن مجموعة تلك الاجراءات والتحولات المتواضعة لم تؤدي الى أي تحول يذكر في البناء الطبقي القديم وعلاقاته التقليدية ، بقدر ما أدت الى اتساع مظلة الطبقة الاقطاعية القديمة والبرجوازية الجديدة عن طريق تزويدها وتجديدها بقطاع اجتماعي واسع من عناصر الطبقات العمالية والفلاحية الشديدة البؤس والتخلف والحرمان ، ممن استفادوا من فرص التعليم كمثقفين ومهنيين ، ونجحوا في تغيير أوضاعهم الاجتماعية لا في نطاق طبقاتهم الاصلية والتعبير عنها وعن مصالحها والدفاع عن هذه المصالح ، بل في نطاق الطبقات الاقطاعية والبرجوازية والانسلاخ شبه الكلي عن أصولهم الاجتماعية والطبقية العمالية أو الفلاحية القديمة ، وقطع كل علاقة وصلة حقيقية لهم بهذه الطبقات التي تعاني في قاع المجتمع منذ زمن طويل ، رغم كل ادعاءات الارتباط الشكلي بين قلة تستغل وتسيطر في القمة وكثرة مسحوقة تماما في القاعدة ، والذي تعودت أن تمارسه مثل تلك العناصر للمناورات السياسية لا أكثر ، يشاركها في ذلك مجموع أفراد الطبقة الاقطاعية والبرجوازية القديمة الأكثر استغلالا وتسنطا تحت نفس الدوافع .

ذلك أن شدة الظلم والقهر والاستغلال المعتقد الذي ترسف تحته طبقة الفلاحين في مصر والتي تشكل بأغليبتها الساحقة صلب المجتمع المصري عبر قرون طويلة تحت وطأة الغزاة القادمين من الخارج أو المتسلطين في الداخل أو هما معا في معظم الحالات قد أصاب هذه الطبقة وغيرها من الفئات والطبقات المقهورة في المجتمع بنوع من الاستلاب واللامبالاة ، وفقدان الوعي بالذات ، الى حد افتقادها لأدنى حدود المبادرة تجاه نفسها ،

الأمر الذى أشار اليه استافنهاغن بقوله : فظروف هذه الأكثرية من الشعب المصرى هى فى غاية البؤس وهى - أى هذه الظروف - ككل متدنية وأقرب ما تكون بحالة « التشرذ » ومعدومة الانسانية ، لدرجة أن بعضهم (الكلام ما يزال لستيفانهاغن) كتب يصفها قائلا : « أن هذه الجماهير الشعبية الحاملة واللامبالية لا تشارك بأية طريقة من الطرق فى الحياة العامة للبلاد ، ولا تشعر بأية رغبة أو أى ايمان فى صناعة تاريخها » (١٢) . ويضيف قائلا فى نفس الموضع : لا شك أن هذا الحكم يبدو قاسيا الا أن المسافة الاجتماعية التى تفصل هذه الجماهير الشعبية عن « الآخرين » (كل الآخرين) هى بالتأكيد العقبة التى تحول دون تبلور طبقة اجتماعية واعية لذاتها . ويؤكد هؤلاء الدارسين « لهذا السبب » أن هذه الجماهير الغائبة سياسيا والمفتقرة الى وعى مصالحها لا تؤمن بأى نظام وهمى لتعلقها به أن يخلق لديها اهتماما تدافع عنه (١٣) . ويذكر الدكتور محمود الكردى فى بحث أكثر حداثة مشيرا الى مثل هذه المتغيرات فى الأوضاع الطبقة الدنيا الآنفة الذكر قائلا : انه نتيجة لتلك المتغيرات مجتمعة ومتفاعلة نلاحظ فئات هذه الطبقة الدنيا وقد غاب وعيهم بالأوضاع الحقيقية التى يحيون فى ظلها ، ويؤدى ذلك بالتالى الى تدنى مستويات طموحهم للدرجة التى يبدو معها وكأنهم غير مستائين من أوضاعهم تلك ، (١٤) .

والاستثناء المعاصر الوحيد الذى يمكن ملاحظته فى حياة المجتمع المصرى كما سبقنا الإشارة هو ما حدث بصورة مؤقتة بعد ثورة ١٩٥٢ حينما بدأت فئة اجتماعية وسطية تظهر وتنطع الى تكوين فئة أو طبقة مثقفة جديدة صاعدة من أسفل ، بما فيهم المثقفون ، حيث نلاحظ فى بحث قيم أكثر حداثة عن التخلف ومشكلات المجتمع المصرى إشارة الدكتور محمود الكردى الى فئة المثقفين فى مصر والذين يصنفهم ضمن الطبقة الوسطى التى برزت بعد الاصلاحات الجزئية التى نفذتها ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ومن خلالها وما لحق بهم من فشل وتمزق بقوله : وكانت هذه الطبقة هى أكثر الفئات تفاؤلا (بحكم تكوينها العمرى ونصيبها من التعليم) بالأحوال المستقبلية للمجتمع المصرى ، الا أن هزيمة ١٩٦٧ جعلتها أكثر الفئات قلقا

(١٢) ر . استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٠٤ .

(١٣) المرجع السابق ص ١٠٤ (أنظر الهامش) .

(١٤) د . محمود الكردى : التخلف ومشكلات المجتمع المصرى ، دار المعارف المصرية ،

الطبعة الأولى ١٩٧٩ ، ص ٣٣٥ .

وحيرة ، فمعظمها من فئة الشباب الذين أعدوا بشكل معين أظهر لهم المجتمع في صورة مستقبلية حالة ، وتخيل كل منهم أن دوره هام وفعال في تحقيق كل ذلك ، ودون مقدمات ، ففوجئ كل منهم بالصورة وقد صارت متناقضة ، فالضعف باد في كل شيء وما هو بقادر على تغييره (١٥) .

وهو في تقديرنا الأمر الذي جعل من حصول أى فرد من أفراد هذه الطبقة المسحوقة على فرصة للخلاص منها والانتقال الى طبقة المستغلين على نحو ما سبق ذكره قاعدة عامة للطموح الاجتماعى بين أفرادها ، وليس مجرد انحراف أو عقوق ونكران بجميلها ، الى حد أن مثل هؤلاء الأفراد المحظوظين ممن نجحوا في أنتشال أنفسهم سياسيا واقتصاديا يتخرجون جدا من مجرد تذكيرهم بأصولهم الاجتماعية القريبة العهد بهم (حتى أبائهم وأخوانهم من الفلاحين الفقراء أو غيرهم من أبناء طبقتهم الأصلية) الذين أصبحوا موضع سخريتهم ولعنة ماضيهم التى تعكر صفو حاضرهم أحيانا ، ويحرصون على موارثها والتخلص منها بقدر حرصهم على استكمال عضويتهم فى الطبقة الجديدة ، فى ما يشبه عملية التناسب العكسى تماما .

وهنا تكمن مأساة المثقفين الوطنيين بالذات ذوى الأصول الفقيرة والكادحة فى مصر وغيرها من المجتمعات الآسيوية فى أنهم لم يستطيعوا بعد أن يكونوا مثقفين الا خارج طبقاتهم وضمن طبقات أخرى معادية فى الأساس لطبقتهم الأصلية ، أو مجرد مثقفين وطنيين لأنفسهم فى أحسن الأحوال .

وفى الهند تتكرر نفس الصورة بنفس الايقاع من حيث قدرة أفراد الطبقات المختلفة على اكتساب الثقافة والامتيازات الاقتصادية والمهنية وأحيانا السياسية بفضل بعض التشريعات القومية الحديثة ، الا أن الحواجز الاجتماعية والدينية تبدو أكثر تعقيدا بما لا يقاس بالنسبة لخصر ، حيث لا تسمح هذه الحواجز بخرقها أو تعديلها فى المجتمع الهندى الا فى حياة ما بعد الموت ، حيث لا يستطيع (البينيان) الذين تتكون منهم غالبية الشعب الهندى الأصلى أن يصيروا « شودرا » (طبقة الجند والسياسيين) كما لا يستطيع أفراد هذه الطبقة الأخرى أن يتصوروا إمكانية انتقالهم الى طبقة « البراهما » (رجال الدين) الا اذا اتفانا أفراد كل طبقة فى خدمة وطاعة من يليها من أعلا مدة حياتهم ، فيكافؤن مقابل ذلك بأن يعيشوا بعد

موتهم وبعد أن يظهر الاله أرواحهم النجسة ويبعثها من جديد فى أجسام طبقه أرقاء • أما اذا اسأوا فان أرواحهم قد يعاد بعثها فى أجسام حيوانات وحشرات قدرة ، أو لا يعاد بعثهم على الإطلاق ، وذلك وفقا لمبدأ « تناسخ الأرواح » (١٦) • يضاف الى ذلك أساسا طبيعة التركيب الطبقي والاقتصادى فى المجتمع الهندى وطراز العلاقات السائدة بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج الاقتصادية الشديدة الاستغلال بالنسبة لمن يمكنه كل شئ ومن لا يملكه حتى أنفسهم ، والتي تعبر عن مدى فسادها وانحطاطها محمل تلك المفاهيم والأفكار والفلسفات الميتافيزيقية والخرافية المنحطة أيضا •

فكل هذه الأفكار الميتافيزيقية والخرافية المغرقة فى القدم والتقليدية فى المجتمع الهندى أو غيره لا تعدو كونها مجرد تدابير أيولوجية واجتماعية أكثر تركيزا واحكاما لسيطرة طبقه على طبقه أخرى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا •

والشئ ذاته - كما يقول استافنهاغن - بالنسبة للتمييز العنصرى ازاء السود فى الولايات المتحدة الأمريكية ، الذى تمتد جذوره الى الرق بقدر ما تمتد الى التطور الذى أصاب الرأسمالية الصناعية على اثر الغاء الرق ، فالتمييز العنصرى ينبع أذن أولا وبجلاء من وضع طبقى ما يزال مستمرا الى حد كبير حتى الآن (١٧) • وهنا أيضا تكمن صعوبة أن يكون المثقفون الوطنيون ذوى الأصول الشعبية المقهورة هم مثقفون لطبقاتهم بالدرجة الأولى ، لأن هذه الطبقات قد لا تقوى على تقبل آرائهم بسهولة كما قد يتصورون عادة ، ناهيك عن ميلهم الدائم كثمة هامشية الى البحث عن مجرد مخرج يخصهم بالدرجة الأولى فى معظم الأحيان بشكل أو بآخر على نحو ما سبقت الإشارة بالنسبة للمجتمع المصرى ، ولم تستطع الطبقات المسحوقة فى هذه المجتمعات أن تسترد من أبنائها الذين دفعت بهم الى ميدان التعليم والثقافة فى العصر الحديث الا القليل جدا رغم قلتهم أصلا •

فى أفريقيا : غرب وجنوب الصحراء :

ان النتائج السابقة الأكثر شيوعا فى المجتمعات الآسيوية وبالذات فى مصر وتركيا وإيران والهند وجنوب شرق آسيا بصفة عامة « أندونيسيا

(١٦) راجع بصفة عامة دكتور أحمد شلبى : الديانة الهندية ، سلسلة مقارنة الأديان ، دار نهضة مصر - طبعة ١٩٧٧ •

(١٧) ر • استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٢٩ •

والفلبين بالذات » يمكن أن نجد لها قرائن وامتدادات مشابهة الى هذا الحد أو ذاك فى أفريقيا وبالذات شمال وشمال شرق القارة ، أما معظم أفريقيا غرب وجنوب الصحراء فانه بالرغم من تشابه النتائج الاقتصادية والسياسية الا أن الوقائع والنسائل التى أدت الى ذلك قد اختلفت كثيرا ، وفقا لطبيعة اختلاف الظروف الاجتماعية والتاريخية المتميزة ، حيث لم تكن توجد فى هذه المجتمعات الأفريقية (غرب وجنوب الصحراء) طبقات وارشتراطيات اقطاعية عريضة المجد والتاريخ الاقتصادى والسياسى والدينى كما هو الحال بالنسبة للمجتمعات الآسيوية ، حيث كانت توجد بدلا من ذلك مجتمعات قرابية بسيطة تحكمها وتنظم شئونها علاقات القرابة العائلية بالدرجة الأولى ، وليس علاقات الملكية العقارية والطبقية ، وحيث كانت غالبية هذه المجتمعات ولا تزال جذورها الاجتماعية تعيش علاقات الاقتصاد المشاعى فى استثمار الارض والرعى الى حد كبير ، ولا تعرف معنى الملكية الخاصة ، حتى غداة الغزو الاستعمارى لهذه القارة المتناهية الحيرات والموارد الاقتصادية المغربية ، حيث عمد الاستعمار الى افساد هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتجريبها حتى العمق .

فلقد كانت الأرض كوسيلة انتاج أساسية فى هذه المجتمعات الأفريقية هى - كما يقول استافنهاغن - ليست أداة من أدوات التملك الخاص ، حتى أن مفهوم الملكية الخاصة لم يتطور فيها - أى فى هذه المجتمعات - الا قليلا هذا ان لم يتطور مطلقا ، اذ أن هذه المجتمعات لا تعرف الانقسام الى طبقات اجتماعية ، ويضيف قائلا : وأنا لنجد فى هذه المجتمعات « البدائية » (على حد تعبيره) أنظمة تراتب مستقلة للبنية الاجتماعية . . ولا تشمل مطلقا سلسلة هرمية من عدة شرائح الواحدة منها فوق الاخرى ، بل تحتوى بالاحرى أوضاعا متباينة لبعض الأفراد وللبعض الانساب الذين يمكن ربطهم بعناصر رفيعة الشأن (١٨) . كما أن الملكية الخاصة لم تكن معروفة قبل الغزو الاوربى ، ولم تكن معتبرة كقيمة تبادلية (١٩) . ففى البلدان الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء - كما يذكر مجموعة من الباحثين السوفييت - كانت العلاقات الاقطاعية عشية الوقوع تحت الاحتلال الاستعمارى معدومة أو هى فى المراحل الأولى من تطورها (٢٠) .

(١٨) ر . استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٤٠ .

(١٩) المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٢٠) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقي فى البلدان النامية ، ص ٤٤٠ .

وقبل ان نسترسل فى تحليل هذه القضية أود أن أشير أو أعقب على كثير من التحليلات الاقتصادية والاجتماعية لتلك المرحلة التى كانت تعيشها هذه المجتمعات الأفريقية قبل الغزو ، وما تزال لها أثارها حتى الآن ، والتى وصفها اللبراليون والمنظرون الغريبيون بأنها المرحلة الأكثر بدائية والأقرب الى الوحشية ، وأنه مهما بدت مساوء وسلوك وتصرفات الغزاة المستعمرين تجاه هذه المجتمعات وأنسامها بالقرصنة والشذوذ فى بعض الأحيان ، الا أنه لا يجب أن يقلل ذلك من أهمية دورهم فى أعداد هذه المجتمعات وتهيئتها للدخول فى مرحلة التطور التاريخي الأكثر تقدما مهما بدت لنا قاتمة ، فهى بالقياس الى ما قبلها تبدوا أهون شرا ، وخطوة الى الامام ، كما أن بعض اليساريين السطحين قد تورطو فى الوقوع فى مثل هذا المنطق العنصرى والامبريالى العقيم الذى لا تخفى مقاصده بطريقه مباشرة وغير مباشرة ولو بدون وعى منهم ، وذلك حينما أطلقوا على هذه المرحلة بأنها من بقايا المجتمع المشاعى ، الأمر الذى قد يكون صحيحا الى حد ما وبشكل ما ، وأن هذه المجتمعات ما تزال هى أكثر من غيرها بعدا عن امكانية التحول الاشتراكي قبل أن تمر بالمرحلة الاقطاعية التى تمر بها معظم المجتمعات الآسيوية ، والمرحلة الرأسمالية التى تمر بها التجمعات الرأسمالية ، وهم بذلك يبررون بوعى منهم أو بدونه وجهة النظر الاستعمارية والامبريالية السابقة الرامية الى تبرير ما حدث ويحدث لهذه المجتمعات من ألوان التشويه والتخريب والسيطرة .

وعلى العكس من كل ما سبق ، فان تقديرنا بأن المرحلة التى كانت تمر بها المجتمعات الأفريقية قبل الغزو وما تزال دلالاتها باقية بعده وحتى الآن ، هى أكثر المراحل امكانية وأقل كلفة فى التحول نحو الاشتراكية والتقدم بسهولة ، بالنسبة للمجتمعات الآسيوية ذات الانماط الاقطاعية والارستقراطية العريقة ، لأن الأولى لا تحتاج لكى تتحول الى الاشتراكية سوا عملية واحدة وهى البناء الاشتراكي فى ظروف اقتصادية واجتماعية أكثر مواتاة تماما ، بينما تتطلب الأخيرة لكى تسير فى نفس الطريق عملية مزدوجة أكثر مشقة وكلفة ، وهى هدم الاقطاع القديم بكل أبعاده ، وبناء المجتمع الاشتراكي بكل مفاهيمه ، خصوصا وان المقولة الماركسية القديمة فى ضرورة اجتياز المراحل للوصول الى الاشتراكية ، لم يعد لها مكان مرموق فى الممارسة العملية الثورية المتنامية ، وصارت مجرد حقيقة فى تاريخ المقولات النظرية التى لم يصادفها الحظ فى التطبيق العملي الا قليلا وضمن حقائق أخرى متنوعة . ولقد اشار مجموعة من الباحثين السوفيت المحدثين الى أن حرمان غالبية سكان الريف البروليتاريين فى آسيا وأمريكا

اللاتينية ومظاهر المشاعية البدائية فى أفريقيا تشكل عاملا مساعدا لتخلصهم من نزعة التملك البرجوازى وتوحيدهم فى النضال ضد مستغليهم (٢١) .

ولأن الاستعمار لم يعثر فى هذه المجتمعات على طموحات ومصالح طبقات اقطاعية وارشتراطيات محلية عريقة ومعقدة ، ينسق مصالحه من خلالها على نحو ما حدث فى آسيا ، بل أستند بمجتمع شبه مشاعى وشديد التماسك فى افريقيا السوداء ، لذلك فقد ركز وصولا الى نفس النتائج السياسية والاقتصادية التى توصل اليها فى آسيا وقبلها فى أمريكا اللاتينية على ثلاثة مداخل رئيسية :

(أ) عدم الاقتصاد على تشويه وتدمير الواقع الاقتصادى على نحو ما حدث فى آسيا فحسب ، بل لقد عمد الى تحطيم وتشويه الواقع الاجتماعى والثقافى أيضا ، عن طريق فرض التخاطب والتعامل باللغات الأجنبية ونشر ثقافتها بدلا من اللغات القومية المحلية وثقافتها التى مالت الى الاندثار وفرض نظم وتشريعات قضائية ومدنية ودينية تتعارض مع كل مقومات المجتمع الأصلى ، وتتيح للأجانب حق امتلاك الأراضى الزراعية واستثمارها ، وممارسة عمليات العزل الاجتماعى لمناطق الأجانب عن السكان الأصليين أو العكس ، بما فى ذلك مناطق العمل نفسها فى المناجم والمزارع ، الأمر الذى أدى بعد الاستقلال الى فرض أوضاع مجتمعات مستقلة سياسيا يشكل فيها الوضع الاستعمارى الفعلى الاطار الاقتصادى والسوسىولوجى (الاجتماعى) للبلاد (٢٢) .

(ب) اقامة عدد كبير من محطات التجميع والتوزيع التجارية والمناطق الحضرية الحديثة على السواحل ومناطق التعدين ومناطق المزارع الاقتصادية الخصبة التى تم الاستيلاء عليها من السكان الأصليين ، يقطنها ويملكها الاوربيون الأجانب من الحكام السياسيين والعسكريين ومدبرو وموظفو وكالات وشركات المستثمرين البيض بالدرجة الاولى ، وأشبه ما تكون بالمسكرات المفلقة تجاه المجتمع المحلى والقومى ، والمرتبطة بالخارج مائة فى المائة (١٠٠٪) ، والتى تحولت فيما بعد الى مدن ، حيث كان يقتصر دورها

(٢١) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقي فى البلدان النامية ،

ص ٤٩٤ و ٤٩٥ .

(٢٢) ر . استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٢٠ .

بالنسبة للمجتمع المحلى كمجرد مراكز لاستخراج وتجميع المواد الخام والحصلات الزراعية استعدادا لنقلها الى الخارج من جهة ، واستقبال وتوزيع السلع الاستهلاكية المصنعة فى الخارج على السكان الاصليين فى الداخل من جهة أخرى ، من مئآت وألوف العمال الأفريقيين الذين تستقبلهم هذه المراكز الأشبه بالمعسكرات فى الصباح ، والقادمين من القرى والمناطق الريفية المجاورة مختارين وغير مختارين للعمل فى المزارع والمناجم وأعمال الشحن والتفريغ ، وأعادتهم من حيث أتوا فى المساء أو فى نهاية الموسم فى أحسن الأحوال ، تحت ظروف عمل بالغة السوء ، حيث يذكر أستافنهاغن عن هذه المراكز قوله : بأن معظم هذه المدن أنشأتها حركة الاستعمار فى سبيل غايات محددة تماما (غايات تجارية ، وإدارية ، أو صناعية) وحافظت - أى هذه المدن - حتى الى ما قبل فترة قصيرة على صلات اقتصادية وثقافية مع أوروبا أكثر من الصلات التى كانت تربطها بالارض الأفريقية(٢٣) .

(ج) القيام بعملية افساد سياسى واقتصادى وثقافى منظم لرؤساء القبائل والعشائر والعائلات والعناصر المثقفة التى حصلت على قسط معين من التعليم والتأهيل المهني والفنى اللازم لأداء بعض الأعمال المساعدة والتكميلية للإدارة الاستعمارية ، وذلك بدفعهم الى التخلي عن كل مفاهيمهم وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية القديمة ذات الطابع الجماعى والمشاركة العامة وتغليب الاعتبارات الاجتماعية على الاعتبارات الاقتصادية ، وذلك باغرائهم بالميل الى الاعتراف بما تصدره هذه الإدارة الاستعمارية من نظم وتشريعات وقوانين رأسمالية تتيح لهم تكوين ملكيات خاصة للارض والموارد الطبيعية بدلا من الملكيات الجماعية ، أو على الأصح تتيح لهم تحويل معظم الملكيات الجماعية للأسرة أو الجماعة أو العشيرة والقبيلة للارض الى ملكية خاصة يتقاسمونها مع الأجانب ، اضافة الى ما يحصلون عليه من امتيازات واغراءات سياسية واجتماعية واقتصادية أخرى مقابل ذلك فى ظل الادارة الاستعمارية ومن خلالها ، كوسطاء ومتوصلحين طفيليين ، يعتمدون على هذه الادارة فى الحصول على نمط معين من المعيشة المترفة والاستهلاك السلعى الذى لم يكونوا قد عرفوه من قبل أو تعودوا عليه الا فى ظل هذه الادارة والتكامل معها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، كما يعتمدون فى فرض مصالحهم الجديدة وتعزيز سلطاتهم السياسية والاجتماعية التقليدية على جماعاتهم ومناطقهم التقليدية على هذه الادارة أيضا ، ويستمدون منها شرعيتهم وشرعية

مصالحهم القديمة والجديدة بدلا من أن يستمدوها من الوضع التقليدى الأصلى الذى كان يربط ربطا دقيقا وقويا بين شرعية الحصول على هذه السلطة والمكانة وبين الارتباط الكلى بالجماعة الأصلية والاحترام المطلق لنظمها والمحافظة عليها ، والتي أصبحت تتعارض جوهريا مع كل ما آلت اليه الأوضاع الجديدة لأفراد هذه الشريحة ، خصوصا فيما يتعلق بتملك الأرض ملكية خاصة ، حيث كانت وما تزال مبادئ التنظيم الاجتماعى القائمة على العرف والخاصة بالحصول على الأرض ، تقضى بمنع هؤلاء الزعماء من التحول بواسطة مراكز السيطرة فى السلم الاجتماعى الى مزارعين منظمين وملاكين عقاريين كبار(٢٤) ، ذلك أنه ليس من ملكية خاصة للأرض فى المجتمعات الأفريقية الأصلية ، فالحقوق العقارية حقوق جماعية ، فالمجتمع الأغنى يكامله فى ساحل العاج « مثلا » ، هو الذى يملك مبدئيا الأرض التى يقيم عليها المجتمع ، والحياسة هى حق من حقوق الاستعمال فقط غير القابل للتصرف واستصلاح الأرض هو الذى يكرس الحياسة(٢٥) .

ولقد أدت هذه العوامل الثلاثة التى اعتمد عليها الاستعمار فى تخريب وتشويه هذه الأوضاع الاجتماعية والثقافية الأصيلة فى أفريقيا غرب وجنوب الصحراء فى نهاية الأمر الى بلورة عدد كبير من التشوهات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى بناء هذه المجتمعات التى كانت أقل تعقيدا وأكثر موثاقا من المجتمعات الآسيوية لأحداث تنمية اشتراكية واحداث تقدم حقيقى ، وذلك حينما أدت الى فساد كل المقومات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الايجابية فى المجتمع (الغاء الملكية الجماعية والاستثمار الجماعى للأرض - تفتيت الترابط والتماسك الاجتماعى التكامل العريق المستمد من نظام القرابة والأسرة - حجب اللغات والثقافات الوطنية وعزلها بصفة شبه نهائية) كما أن هذه التشوهات التى أصابت المجتمع التقليدى بفعل السياسة الاستعمارية قد حالت فى الوقت نفسه دون تحول المجتمع الى مجتمع ثقافى اقطاعى أو برجوازية على أى نمط معاصر كما هو المفترض عادة ، لأن العناصر التى أغريت بالتخلى عن مفاهيم وأسس المجتمع التقليدى لم تتحول الى طبقة اقطاعية أو برجوازية واضحة البنيان والمعال ، بقدر ما أن هذه العناصر المكونة من بعض أفراد الزعامات التقليدية والعناصر الأكثر احتكاكا بالادارة الاستعمارية قد كونت شريحة سياسيا واقتصادية متكاملة

(٢٤) الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٢٥ .

(٢٥) المرجع السابق ص ١٣٩ و ١٤٠ .

كلية مع الادارة الاستعمارية ومرتبطة بها سياسيا واقتصاديا وثقافيا الى حد كبير ، أكثر من ارتباطها بأصولها الاجتماعية وواقعها الثقافي والقومى .

ففى مناطق أفريقيا السوداء التى وجد بها استعمار قوى ، لا سيما فى اتحاد جنوب أفريقيا وكنيا نجد - كما يقول أستاذناهاغن - طبقة من المزارعين قد نمت وتطورت بصورة مبكرة فى الاراضى التى طرد منها السكان الاصليون الا أن هذه الطبقة قد فرضت نفسها من فوق على المجتمع وهى جزء من المجتمع الاستعماري ضمن نطاق الوضع الاستعماري (٢٦) .

كما أن مئات وألوف من العمال الذين كان يتم أستخدامهم للعمل فى المزارع والمناجم والخدمات المختلفة لم يتحولوا الى طبقة عاملة ذات سمات وملامح معينة بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، لأن ظروف التشغيل كانت تتم اما بالاكراه والسخرة أو بدافع البحث عن المبالغ النقدية التافهة التى تعطى لهم فى نهاية كل يوم ، أو فى نهاية الاسبوع ، لكى يتمكنوا بواسطتها من شراء بعض السلع الاستهلاكية المصنعة القادمة من الخارج ، من ملابس وغيرها ، والعودة الى أسرهم بعد نهاية يوم العمل أو موسم العمل فى أحسن الأحوال ، حيث يتشكل وضعهم الاجتماعى والطبقى الصحيح ضمن روابط الاسرة والقرابة التقليدية ، ولا يعودون للعمل الا حينما تتجدد احتياجاتهم الشخصية والاسرية تلك ، أو يجبرون عليه بالقوة ، خصوصا فيما يتعلق بمواسم الحصاد وجنى المحاصيل الزراعية للبن والكافوا ، والتى تتطلب أكبر كمية ممكنة من اليد العاملة وفى أقصر وقت ممكن .

كما أن ممارسة سياسة العزل الاجتماعى لهذه الفئة العاملة الواسعة النطاق من قبل الادارة الاستعمارية سواء فى مواقع العمل أو الحياة العامة، وتشغيلهم تحت ظروف اجتماعية واقتصادية بالغة السوء وخالية من أى ضمانات للاستقرار الاقتصادى والاجتماعى وأبسط المفاهيم الانسانية ، لم يكن كل ذلك مجرد الامعان فى استغلال هذا القطاع اتواسع من المجتمع بأبزار طاقته الانتاجية بلا مقابل تقريبا فحسب بل لقد كان ذلك هو ترجمة عملية لرغبة واعية من قبل تلك الادارة فى تكريس وضعهم الاجتماعى الهامشى الذى يحول دون ارتباطهم بقوى الانتاج وحتى لا يتحولوا الى طبقة عمالية متماسكة مرتبطة بمواقع العمل وقادرة على تغيير علاقات هذا العمل

الاستغلالية السائدة ، ويضمن فى الوقت نفسه عدم قدرة المجتمع بأسره على توفير الحد الأدنى من متطلباته التى أصبح ينتظر ٩٠٪ منها من الخارج وبالمقابل النقدى دون أن يدفع بهذه الجامعات الواسعة من أبنائه فى ظل تلك الظروف وكيف ما أتفق ، يساعده على ذلك ميل المجتمع التقليدى نفسه الى استمرار ارتباط أبنائهم به وعدم انفصالهم عنه .

ولقد اشار مجموعة من العلماء السوفيت الى هذه الحقيقة بصفة عامة بالقول : ان احتكاك العمال المتواصل بالتنظيمات الاجتماعية التقليدية (كالقبيلة والعشيرة والجماعة أو العائلة الكبيرة) التى يحافظوا على عضويتهم فيها ، تعيق نفوج الوعى الطبقي ونشوء وتطور التنظيمات البروليتارية الطبقيّة وانتشار الايديولوجية البروليتارية ، وبالمقابل تضعف أيضا التنظيمات الريفية التقليدية وتعرض للتأثيرات الخارجية ، مفتقدة عزلتها وانغلاقها على نفسها(٢٧) .

والصورة المريرة التى يشير اليها د. استافنهاغن حول هذه المسألة بالنسبة لبعض المجتمعات الافريقية تؤكد هذه الحقيقة ، حيث يشير الى ما ورد فى تقرير احدى اللجان الفنية لمناجم التعدين التى كلفت باجراء تحقيق عن أجور السكان الأصليين جاء فيه : « ان من مصلحة المناجم أن يتم تشجيع العمال من السكان الأصليين على العودة الى ديارهم فور انتهاء الفترة المحددة لخدماتهم ٠٠ والا فان الوسائل المساعدة للقوت (والمقصود هنا المواسم الزراعية المحلية) ستختفى من حياتهم ، وسيصبح العامل ميالا الى التحول الى مقيم دائم فى منطقة العمل وذى حاجات أكبر ٠٠٠ ويضيف استافنهاغن قوله : بأن الشركات فى سبيل الوصول الى أهدافها قد استعانت بمختلف الطرق والأساليب المؤدية الى ذلك ، فعقود العمل مداها محدد تماما ، وشروط العمل والاقامة فى المناجم قاسية لدرجة أن العامل لا يخطر بباله مطلقا احضار عائلته الى مقر عمله ، ثم أنه عندما يرجع الى ديارته فانه ينبغى عليه أن يمضى فترة من الوقت قبل أن يسمح له بالالتحاق ثانية بعمله ، كما وأنه لا يسمح للأشخاص غير القادرين على تبرير وجودهم عن طريق عقد العمل بالاقامة فى المناطق التى تقع خارج اطار مناطق قبائلهم ، كما أن قسما رئيسيا من الاجر لا يسلم الا عند نهاية العقد أى عندما يغادر العامل الى دياره . ويتعاون فى سبيل ذلك كل من ادارة شركات المناجم « الأجنبية

(٢٧) مجموعة من العلماء السوفيت : التركيب الطبقي فى البلدان النامية ، ص ٧٢ .

طبعاً » والزعماء المحليون ما وسعهم ليحولوا أو يجمدوا « تفكك القبيلة وتفسخها » أى لكى يبقى العامل المهاجر مندمجاً نفسياً وجسمانياً بقبيلته (٢٨) .

ومن خلال هذه الوقائع نستطيع أن نتصور ما لحق بأوضاع هذه المجتمعات من تشوهات اقتصادية واجتماعية عميقة قبل وبعد الاستقلال على السواء . ناهيك عما كان قد لحق بمجتمعات هذه القارة من تشوهات اجتماعية عميقة من جراء افتقادها لأكثر من عشرين مليوناً من سكانها فى سن الشباب تم نقلهم الى العالم الجديد كسلع للبيع والشراء فى ظروف قهر واستعباد لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية ، بدءاً من حوالى عام ١٥٢١ وحتى عام ١٨٨٨ ، ذلك أنه اذا كانت العبودية قد ألغيت سياسياً فى الولايات المتحدة عام ١٨٦٥ فقد كان لا بد من الانتظار حتى عام ١٨٨٨ كى تزول من البرازيل (٢٩) . والعبودية بشكل عام اذا كانت قد زالت سياسياً وكشكل من أشكال التجارة والاستثمار المربح الذى مارسه الرأسمالية الأوروبية الغازية فى القرون الماضية ، الا انها لم تزل بعد كمفهوم اجتماعى واقتصادى وطبقى حتى الآن فى هذه المجتمعات وتوابعها .

تشوه فئة المثقفين فى أفريقيا :

لاحظنا فى افريقيا غرب وجنوب الصحراء أن الأوضاع الاجتماعية والطبقية بانذات كانت تميل أكثر الى البساطة وعدم التعقيد الاقتصادى والسياسى والاجتماعى أيضاً ، فان الفئات الاجتماعية التى نجحت فى تحديث أوضاعها التقليدية اقتصادياً وثقافياً فى ظل الادارة الاستعمارية وبفعلها قد مالوا - على نحو ما سبقت الإشارة - الى التكامل والاندماج مع هذه الادارة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً أكثر من تكاملهم مع أية أوضاع طبقية محلية قديمة أو حديثة ، بما فى ذلك فئة المثقفين على وجه التحديد ، حيث صارت ثقافة المستعمر ولغته هى الثقافة واللغة الرسمية ، الى الحد الذى يمكن اعتبار حركة التحرر والاستقلال السياسى التى تمت فى هذه المجتمعات كانت عملية استقلال فى نطاق تلك الثقافة وليس تحرراً منها بالفعل .

كما أن الفئات السياسية المثقفة التى تكونت وفق تلك الظروف المشار إليها سابقاً وناضلت من أجل الاستقلال السياسى الذى حصلت عليه فى اطار نفس الظروف والمفاهيم ، هذه الفئات لم تصدم غداة الاستقلال بمؤسسات طبقية محلية قوية من أى نوع تحول دون طموحاتها كفئة أو

(٢٨) ر.و استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١١٧ و ١١٨ .

(٢٩) بول بايرونك : مازق العالم الثالث ، ص ١٠٢ و ١٠٣ .

صفوة على نحو ما حدث في معظم المجتمعات الآسيوية وبعض مجتمعات شرق وشمال أفريقيا ، أو تحد منها على الأقل وتجبرها على مراجعة هذه المفاهيم والمطوحات الفئوية والشخصية الحاطنة والمنحرفة ، لذلك فان افراد هذه الفئات أو النخب السياسية والاجتماعية قد نجحت الى حد ما في الامساك بزمام السلطة بعد الزوال الشكلي للاستعمار سياسيا في ظل دكتاتوريات عسكرية وشخصية مفعمة بالمفاسد السياسية والاقتصادية والشخصية . حيث أمعنت هذه النخب السياسية والعسكرية البيروقراطية نصف المثقفة في البحث عن مظاهر الابهة والترف والمجون الشحصى وأعاقة كل امكانية لخلق اوضاع اجتماعية وسياسية طبيعية من أى نوع ، ناهيك عن امكانية احداث تنمية أو تقدم اجتماعي حقيقي ، محتمين بظل الاستعمار المباشر وغير المباشر الذي لم يفارقهم قط أو ينتقص من نفوذه ومصالحه شيء ان لم تكن قد تكرست بطريقة أفضل في ظل الظروف الجديدة وتحت مظلة الاستقلال السياسي المزيف ، حيث تحصل هذه الفئات والعناصر البيروقراطية على رأسمالها ومداخيلها الطفيلية الهائلة من مصادر لا علاقة لها بالانتاج والاستثمار ولكنها تتألف - كما يذكر عدد من الباحثين السوفيت - من الرواتب والتعويضات العالية بشكل غير معقول التي تدفع للشخصيات الحكومية والسياسية التي تشكل النخبة الحاكمة ، ففي الكمرون مثلا حيث لا يتعدى متوسط الدخل السنوي عشرين ألف فرنك للفرد يصل دخل الوزير الى ١٨٥ ألف فرنك شهريا (بفارق مقداره ١١ ضعفا) وفي الجابون يتلقى رئيس الدولة ٨٠٠ ألف فرنك والوزير ٣٥٠ ألف فرنك ونائب البرلمان ١٥٠ ألف في الشهر ، في حين أن متوسط أجور الشعب الشغيل لا يزيد في هذا البلد عن ٥٠٠ الى ٦٠٠ فرنك في الشهر (أى بفارق مقداره ١٦٠٠ ضعف) بالنسبة لرئيس الدولة و ٧٠٠ ضعف للوزير و ٣٠٠ ضعف لوكيل البرلمان ، كما تشكل المدفوعات الاضافية عادة نسبة من ١٥ الى ٢٠٪ من الرواتب الأساسية ، ويضيف هؤلاء الباحثين انه يصعب في الحقيقة حساب هذه المداخيل لأن هناك طرق وأساليب عديدة يستخدمها العاملون في السياسة والدولة من أجل الوصول الى الثراء الشخصي ، فالدفعة التي يتلقاها الموظف النيجيري الكبير من أجل بناء وتأثيث منزل له تعادل رواتب عدة سنوات ٣٠ الى ٣٥ ألف جنيه استرليني ، والوزراء في الكمرون يتلقون عند السفر الى الخارج بصفة رسمية أو غير رسمية تعويضات انتقال بحدود عشرون ألف فرنك وما فوق في اليوم الواحد(٣٠) .

(٣٠) راجع عدد من الباحثين السوفيت : التركيب الطبقي للبلدان النامية ، مرجع

سابق ، ص ٢٤٣ الى ٢٤٥ .

ولم يكن ضعف البناء الطبقي التقليدى والتكامل الاقتصادى والثقافى العميق لهذه الفئات السياسية والعسكرية الجديدة المثقفة وشبه المثقفة مع مستعمرين الأمس وأصدقاء اليوم هما السببين الوحيدين اللذين ساعدا على تكريس هذه الوضعية والوصول بها الى هذا الحد ، اذ أن الطريقة التى حصلت بها هذه المجتمعات على استقلالها منذ مطلع الخمسينات فى شكل قرارات فردية وجماعية كانت تصدرها الأمم المتحدة وتنفذها الدول الاستعمارية فيما يعرف بسلسلة قرارات واتفاقيات انهاء الحماية أو الانتداب دون أن يترافق ذلك مع حركة نضال سياسى وعسكرى وقومى ، هذه الطريقة قد جعلت من الاستقلال عملية شكلية غير ذات دلالة اجتماعية وسياسية عميقة، الا بالنسبة لتلك الفئة التى تسلمت السلطة وورثت امتيازاتها من المستعمر بصورة أكثر تردىا وفسادا .

وعلى العكس من ذلك فان الاقطار التى لم تستجب الدول الاستعمارية لقرارات المنظمة الدولية بمنحها الاستقلال أو انهاء الوصاية والحماية عليها فى عقد الخمسينات ، وأضطرت هذه الاقطار الى خوض نضال سياسى وعسكرى فى وجه الاستعمار ، فانها قد حصلت فى الستينات والسبعينات على استقلال وطنى أكثر دلالة وعمقا وأثارة للبعد الاجتماعى والقومى ، ساعدها على تحديد بعد سياسى واجتماعى أفضل لمرحلة ما بعد الاستقلال ، رغم أن المشاكل الاجتماعية والثقافية التى ورثها الاستعمار لهذه المجتمعات لم تكن بأقل سوءا وتعقيدا من غيرها ان لم تكن أكثر ، فالجزائر التى كانت فرنسا تعتبرها الامتداد الجنوبى لأراضيها الوطنية والمستعمرات البرتغالية بصفة عامة « أنجولا وموزمبيق » تقدمان أبرز الأمثلة المقنعة على صدق تلك الحقيقة ، وأخيرا زيمبابوى (روديسيا سابقا) والتى عانت من أشكال التفرقة والتمييز والاستيطان العنصرى حتى نهاية السبعينات ، وحقت انتصارها الوطنى فى بداية الثمانينات .

والخلاصة أن نمط المثقفين فى أفريقيا عموما - باستثناء مصر الى حد ما - قد جاؤا تعبيرا مباشرا ومتكاملا مع نمط الثقافة الاوربية الى حد كبير ، وأرادو أن ينظروا الى مجتمعاتهم ويحلوا مشاكلها من خلال تلك الثقافة أو يشوهوا أوضاعها بهذه الطريقة على الأصح ، خصوصا فيما يتعلق بمجموعة البلدان التى حصلت على استقلالها بموجب قرارات دولية فى أوائل الخمسينات ، حيث لم يكن الوعى الوطنى والقومى قد تبلور من خلال حركة تحرير سياسية وعسكرية بحيث يستطيع هذا الوعى أن يحد من عملية التشويه الثقافى والاجتماعى على الأقل الذى كان قد لحق بأوضاع هذه

المجتمعات ، على غرار ما حدث بالنسبة للمجتمعات التي حصلت على استقلالها في الستينات والسبعينات وعبر نضالات سياسية وعسكرية قومية كما سبقت الإشارة .

كما أن فئة المثقفين السياسيين في القارة الأفريقية عموما - باستثناء مصر - لم يصدموها بمؤسسات طبقية تقليدية أو تطلعات قومية قوية بعد الاستقلال تحد من طموحاتهم الفكرية ومفاهيمهم الثقافية المشوهة ، اذا ما استثنينا الجزائر والمستعمرات البرتغالية « انجولا وموزامبيق » ، (سابقا) وزمبابوي (روديسيا سابقا) التي حد فيها النضال المسلح والتطلعات القومية من هذه المشكلة بعد الاستقلال الى حد ما ، الامر الذي جعل من مجاميعهم السياسية والعسكرية نخبات متميزة عن المجتمع القومي تماما وشديدة الميل الى التسنط الديكتاتوري والامعان الثره في الترف الاستهلاكي الشخصي والعائلي للسلع الكمالية الاستهلاكية الأجنبية ، جريا وراء التقليد والمحاكاة للنخب الغربية التي ورثوها اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، الامر الذي قلل من الفوائد المتواضعة التي كان في الامكان الحصول عليها من خلال الاستقلال السياسي وعرقل استعادة المجتمع لتوازنه الاجتماعي والطبقي حتى الآن ، وبحودود نسبية اذا ما قورن كل ذلك بما تم في المجتمعات الآسيوية التي حسمت هذه المشاكل بوضوح وسرعة بعد الاستقلال باستيلاء الطبقة الاقطاعية القديمة أو البرجوازية الجديدة على السلطة أو تحالفهما معا من خلالها ، وأقصاء فئة المثقفين نهائيا وأعادتهم الى مواقعهم القديمة كما سبقت الإشارة في الصفحات السابقة .

ومما تجدر الإشارة اليه هنا هو أن هذا الوضع التمايز نسبيا بين الأوضاع الاقتصادية والطبقية في آسيا وأفريقيا وأنعكاساته التمايزة أيضا على فئة المثقفين هنا وهناك لا يشكل ميزة ايجابية لآسيا عن افريقيا كما قد يتصور البعض أن لم يكن العكس هو الصحيح في حالة الاقدام على اجراء تحولات ثورية ، ذلك أنه بالرغم من كل ما وصلت اليه النخبات والدكتاتوريات السياسية والعسكرية الفردية المسيطرة في أغلب المجتمعات غرب وجنوب الصحراء الأفريقية والمنبثقة من شريحة المثقفين الأوائل ، من حالات التهور والقهر والفساد والافساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، الا أن هذه الدكتاتوريات الفردية ستظل بوضعها كذلك « مجرد نخبات أو مراكز قوى فردية أو عائلية » هي أقل كلفة وأضعف شكيمة عند اقتضاء العمل الثوري الناجز لاسقاطها والتخلص منها ، اذا ما قورن ذلك بإمكانية اسقاط الطبقات الاقطاعية والكبراردورية بأكملها في المجتمع الآسيوي

بصفة عامة ، وفي بعض مجتمعات شرق وشمال أفريقيا نفسها ، خصوصا وأن مثل هذه الطبقات لم تتبلور بعد في المجتمعات الأفريقية غرب وجنوب الصراء الى الحد الذى تشابه فيه مع المجتمعات الآسيوية ، ولن يتأتا ذلك فى وقت قريب ، حيث ما يزال التركيب الحقيقى والتحتى لهذه المجتمعات الأفريقية مشدودا بعمق الى أصوله التقليدية ولم يطراء عليه تغييرا كبيرا ، اذا ما استثنينا الفئات والنخب السياسية والاقتصادية والعسكرية المسطحة من أعلا فوق هذا المجتمع العريق الذى يحتفظ بمفاتيح المستقبل وزمام كل امكانيات التحول الحقيقى ، والذى بدء بالفعل يجد من أبنائه من يتمثلون واقعه تمثلا تاريخيا واجتماعيا عميقا ويعملون من خلاله ، وان كان الوقت ما يزال مبكرا فى الحكم على موعد ومدى مثل هذا التحول ، الا انه آت لا محالة ، باعتباراه القاعدة التى أفسدتا التشوهات المختلفة وعرقلة ديناميكيتها الجدلية لبعض الوقت .

فى أمريكا اللاتينية :

لابد وأن نلاحظ ونحن نستعرض أنماطا مختلفة من التشوهات الاقتصادية والاجتماعية التى لحقت بمجتمعات البلاد النامية من أن الفروق التى تميز شكل هذه التشوهات فى أفريقيا عنها فى آسيا أو أمريكا اللاتينية هى فروق نسبية وليست مقطوعة الصلة ببعضها ، خصوصا اذا ما تذكرنا بأن القاسم المشترك بينها جميعا هو الابتزاز الاقتصادى والسيطرة السياسية الاستعمارية ، وان ما نذكره أو نركز عليه فى هذا التقسيم من أنماط التشويه الاقتصادى والاجتماعى الذى يميز أفريقيا عن آسيا عن أمريكا اللاتينية انما هو ميل منا الى ابراز أشد وأكثر أنماط التشويه شيوعا واختلاف وسائلها فى منطقة ما بالنسبة لأخرى من هذه المناطق بصفة عامة ، أما اذا نظر الى مجموع هذه التشوهات بصفة عامة فاننا نجدها تتداخل مع بعضها فى كل مكان تقريبا عبر هذا العالم المتخلف وبفوارق نسبية قد تكون حادة فى بعض الحالات بحكم اختلاف الظروف التاريخية والموضوعية .

واذا كنا قد استوفينا هذا الأمر بعض الشيء بالنسبة لآسيا وأفريقيا فما الذى حدث فى أمريكا اللاتينية ، وبأى أيقاع تم تشويه أوضاع شعوب ومجتمعات هذه المنطقة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وحضاريا ، وكيف ؟

لقد تعرضت هذه المجتمعات للغزو والسيطرة الاستعمارية الأوروبية قبل غيرها من المجتمعات الأفرو آسيوية بوقت طويل نسبيا ، بدءا مع مطلع القرن السادس عشر حينما قادت الصدف الأفواج الأولى من المستكشفين

والغزاة الاوربيين الأوائل من أسباب ويرتغاليين الى هذه المنطقة وهم يصدد البحث عن طريق بحرى يوصلهم الى الهند ، فوجدوا فى هذا العالم الجديد الذى لم يعرفوه من قبل ما هو أكثر أهمية وأغراء من الهند التى يعرفونها وتعرفهم من قبل ، وكان لا يزال التفكير الاوربى فى تلك المرحلة المبكرة مشبهاً بالفكر الاقطاعى والكولونىالى ، لذلك فقد كان شديد التهور وغير محدد الأهداف اقتصاديا وسياسيا على نحو ما حدث فيما بعد خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، حيث كان يغلب عليه فى تلك المرحلة فكرة البطولة والقرصنة الدولية وأعمال القتل والابادة والتخريب والنهب والتوطن العنصرى والقومى ، اضافة الى أنواع الأوبئة والميكروبات التى جلبها الاوربيون معهم الى المنطقة والتى لم يكن لها أى وجود فى هذه المجتمعات المتحضرة من قبل ، مثل الجدري والتيفوس والجذام والطاعون والحما الصفراء .

وتتضح هذه الحقائق أكثر فأكثر اذا ما تذكرنا بأن أهم الافتراضات شبه المؤكدة قد اشارت الى أنه فى الوقت الذى لم يكن يتجاوز فيه سكان أوروبا ستين مليون فى مطلع القرن السادس عشر كان مجموع سكان شعوب ومجتمعات أمريكا اللاتينية (الوسطى والجنوبية) قبل الغزو الاوربى ، أو ما قبل كولومبس كان يتراوح ما بين ثمانين الى مائة مليون نسمة ، حوالى عام ١٥٠٠ ، وأصبح هذا الرقم فى عام ١٦٠٥ - كما يذكر بول بايرونك - هو عشرة ملايين فقط ، وان تناقص عدد السكان فى المكسيك الوسطى كان أشد قوة : ٢٥ مليون حوالى العام ١٥٠٠ ، فسقط العدد الى مليون واحد حوالى عام ١٦٠٥ (٣١) .

ولقد نجمت هذه الابادة - كما يقول بايرونك أيضا - عن المفاعيل المتضافرة للمذابح التى رافقت الغزو وتلته ، والأوبئة القتالة التى سببتها الفيروسات والجراثيم التى حملها الاوربيون ولم تكن موجودة بالمرّة من قبل فى أمريكا ، مثل الجدري وبخاصة ، وكذلك التيفوس والجذام والطاعون والزحار والحما الصفراء . وتفاقمت بسبب نظام الاستغلال الكولونىالى فى المناجم والزراعة على حد سواء (٣٢) .

لذلك فقد منيت هذه الشعوب والمجتمعات بأسوأ مما منيت به أية مجتمعات أخرى من جراء الغزو الاستعمارى الاوربى ، ذلك أن مجموع مقومات

(٣١) بول بايرونك : مازق العالم الثالث ، ص ٧ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

وجودها الاقتصادي والاجتماعي والحضارى برمته لم تتعرض لعملية سطو وتدمير مباشر حتى الصفر بكل ما لهذه الكلمة من معناه وليس مجرد الاستقلال فحسب ، بل لقد تعرضت هى ووجودها القومى نفسه لعمليات الابادة الجماعية بالكامل ، حيث لم يبق منها اليوم الا مجرد عينات اجتماعية لا تعنى أكثر من مجرد دالة معينة على آثار ارتكاب أعظم جريمة فى تاريخ البشرية ، وذلك رغم ما كانت تتمتع به هذه المجتمعات من مستوى تقدم حضارى شامل يتجاوز كثيرا ما كانت عليه المجتمعات الأفريقية ، وذى سمات انسانية عميقة الدلالة بالنسبة لما عرفت به الحضارات الآسيوية والشرقية بعامة .

فلقد كانت هذه المجتمعات تتشابه الى حد كبير مع مثيلاتها فى أفريقيا من حيث الأوضاع الاقتصادية ونمط الملكية الجماعية للأرض ، وحالة التراتب الاجتماعى فى السلطة والمكانة الاجتماعية التى لم تكن مرتبطة بالملكية الخاصة للأرض أو الثروة ، بقدر ما كانت ترتبط بمجمل التنظيم الاجتماعى والدينى والسياسى المقنن من خلال العرف والتقاليد المنبثقة من مجمل أوضاع المجتمع ككل ، والتى تخضع لكثير من الضوابط الاقتصادية الصارمة بالذات على سلوك الفرد الى جانب الضوابط الاجتماعية .

وإذا كانت مجمل هذه المفاهيم قد تبلورت فى افريقيا وتجسدت من خلال نظام الاسرة والقراية بالدرجة الأولى ، فإنها قد تبلورت فى مجتمعات أمريكا اللاتينية قبل الغزو وتجسدت من خلال تنظيمات اجتماعية وسياسية أكثر ارتقاء وتطورا وشمولية ، تمثلت فيما يطلق عليه أستافنهاغن « المتحدات الاجتماعية المحلية » المرتبطة بمتحد قومى أعلا تنبثق من خلاله سلطات سياسية واجتماعية لدول مركزية قوية وبالغة الدقة والتنظيم وذات مضامين اقتصادية واجتماعية وتقنية ديناميكية متحركة فى اتجاه التقدم والتطور الذاتى ، فالأمر هنا - كما يقول أستافنهاغن - كان يتعلق بدول شديدة المركزية تقوم على أساس تنظيم اجتماعى هو عبارة عن « متحد اجتماعى » قبلى اقليمى . . . قام بفتوحات عسكرية واسعة جدا ، وكانت الغنائم والاتاوات التى نجحت عن هذه الفتوحات قد أسهمت فى قيام سلطة سياسية واقتصادية لا مثيل لها فى العالم الذى سبق عهد كولومبس ، وفى نشوء بنية طبقية ذات تسلسل هرمى « قومى » (٣٣) . الى الحد الذى يفترض

البعض بأن هذه المجتمعات كانت مهينة لانجاز ما يشبه « المعجزة » ذات الأبعاد والملامح المتميزة تماما في التقدم وانتطور الاقتصادى والاجتماعى والتقنى فى العصور الحديثة ، لو لم تصب بكارثة البربرية الاوربية التى أفست كل شئ فى حياتها • ومما زاد من تفاقم هذا الغزو البربرى الاوربى الذى بدأ بهذه المنطقة وانتهى الى معظم مناطق العالم ، هو أن ما كان يحرك الكولونىالية الاوربية الغازية فى البداية هو - كما يقول بول بايرونك - مجرد مصادرة الثروات التى راكمتها خلال قرون الحضارات ما قبل الكولومبية ، وبعد ذلك الاستثمار المنجمى بالمعنى الضيق للتغيير(٣٤) •

ذلك أن حركة الغزو الاوربية للعالم الجديد تم تكتسب المضمون السياسى والاقتصادى الا بعد أن أحدثت شروخا وكسورا عميقة ، ان لم نقل تدميرا شاملا على الاصح ، لأعماق التكوين الاجتماعى والحضارى لهذه المجتمعات ، وقامت بعملية تسطيح مجتمع أفقى جديد من أعلا « مهجن » ومجلوب عبر الأطلنطى ، على أنقاض المجتمعات الأصلية القديمة ، تفصل بين الاثنين مسافات سياسية واقتصادية وعنصرية وقومية لا تدرك بسهولة • هذا اذا سمح بعملية التتابع وايجاد نقاط تماس حقيقية بين الطرفين ، الأمر الذى ما يزال مشكوكا فى حدوثه حقيقة ، حيث أنه ما لبث هذا المجتمع المسطح أن سار فى اتجاه بلورة أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية صعودا وهبوطا كمجتمع متكامل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، خصوصا بعد حصول هذه المجتمعات على الاستقلال السياسى منذ وقت مبكر فى أواخر القرن التاسع عشر ، والذى تسلمه هذا المجتمع « المسطح والمهجن » من المجتمع (الأم) فى أوربا الاستعمارية ، وكان كل ذلك يحدث بمعزل عن جرثومة المجتمع الأصلى القديم أو رغما عنه على الاصح ، رغم أنه كان ولا يزال - ورغم كل ما لحق على مستوى القرية فى القارتين متشابهة(٣٥) • وهنا تكمن فى تقديرنا جرثومة المستقبل فى كلا القارتين •

ولذا فمن الناحية الثقافية تسير أمريكا اللاتينية على العموم فى تيار الحضارة الغربية أكثر مما تسير فيه أفريقيا ، ومع ذلك فإن البنى الثقافية على مستوى القرية فى القارتين(٣٥) • وهنا تكمن فى تقديرنا جرثومة المستقبل فى كلا القارتين •

(٣٤) بول بايرونك : مازق العالم الثالث ، ص ١٠٠ •

(٣٥) ر.استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٧٨ •

نخلص من خلال هذا العرض الى امكانية تحديد ملامح التشوهات الاجتماعية التي لحقت بهذه المجتمعات الامريكية اللاتينية فى :

(أ) تدمير مجتمع قديم تدميرا اقتصاديا وحضاريا وبشريا الى أقصى حد ممكن ، ومحاولة عمل كل شئ بدونه وبمعزل عنه فى أحسن الأحوال ، ومع ذلك فان جرثومته لم تمت نهائيا وما تزال كما وكيفا تتحدى بعمق كل ما يجرى حتى الآن ، وتخترن فى طياتها عبوات اجتماعية ناسفة أن عاجلا أو آجلا .

(ب) تستطيع مجتمع (هجين) قليل التماسك على أنقاض المجتمع القديم وفرض نفسه كمجتمع بديل شبه متكامل سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، تربطه ببقايا المجتمع القديم علاقات استغلال اقتصادى وقهر سياسى واجتماعى وقومى وعنصرى الى حد كبير .

(ج) ان الحالات القليلة التى تسمح بانتقال بعض الأفراد من المجتمع الهندى القديم الى المجتمع الجديد لا يعنى انتقال فى السلم الاجتماعى والطبقي من أسفل الى أعلى ، بقدر ما يعنى فى الأساس انسلاخ قومى وحضارى من المجتمع القديم بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، والقيام بعملية اندماج قومى مشوه بالمجتمع الجديد .

(د) اذا جاز لنا أن نقبل - تمشيا مع أكثر الآراء شيوعا وميلا الى الصواب - بأن مجتمعات أمريكا اللاتينية فى ضوء ما سبق تنقسم - ولو مجازا - الى طبقتين ، طبقة واسعة مستغلة ومقهورة ممثلة بالمجتمع الهندى القديم ، وطبقة مستغلة ومسيطرة من المجتمع المهجن والاوربى الجديد ، أو عند الاقتضاء - كما يقول رالف بيلز - البيض والسود ، الا أن تشوهات اجتماعية واقتصادية وقومية ما تزال تحد من الثقة بهذه الفرضية الأقرب الى الواقع وتعرقل من تكامل حركتها وديناميكتها الجدلية الصحيحة فى الوقت الحاضر على الأقل ، وعلى امتداد غير محدد فى المستقبل .

ذلك أنه فى الوقت الذى كف فيه المجتمع القديم عن وجوده كمجتمع طبقي متكامل البنيان وتحول الى ما يشبه الاقلية أو الأغلبية القومية المضطهدة سياسيا واقتصاديا وعنصريا الى حد كبير ، فان المجتمع الهجين والمسيطر من أعلى قد أخذ ينقسم على نفسه أنقساما طبقياً رأسيا ، ما بين مستغلين (بكسر الغين) ومستغلين (بفتحها) ، كما أن المجتمع القديم ما يزال يستمد وجوده من مميزاته الاجتماعية والقومية ونمط معيشته الاقتصادية

أيضا أكثر من كونه أصبح بالفعل يشكل طبقة بروليتارية مستغلة واسعة النطاق ومندمجة في مجتمع قومي متجانس . وهنا تكمن تشوهات الحاضر اذا تجاوزنا وغضضنا الطرف عن جرائم الماضي ، رغم أن نك الفرضية الآتية الذكر يبدو أنها الامكانية الوحيدة التي سيؤول اليها حتما تفسير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والطبقية لتلك المجتمعات في المستقبل الوشيك الذي لا نستطيع أن نحكم بموعده حتى الآن . ما لم تجد ظروف وتطورات تاريخية وسياسية ثورية تقدمية تعجل من متغيرات التطور وتدفع بها في الاتجاه الاجتماعي والتاريخي الصحيح .

نعت المثقفين في أمريكا اللاتينية :

اذا جاز لنا القول بأن السيطرة الاستعمارية في أفريقيا قد انتهت الى تكوين شريحة اجتماعية محلية لا متجانسة من المثقفين السياسيين والعسكريين والتجار الوسطاء والسماسرة والملاكين العقاريين الذين نشؤا في ظل هذه السيطرة ونكاملوا معها اقتصاديا وثقافيا الى أقصى حد ، وقامت بتسليمهم علم الاستقلال « الكسيح » بعد أن كانت قد قامت بعملية تسطيحهم أفقيا ورأسيا قبل أن ترحل بلحمها ودمها فوق بناء اجتماعي تقليدي عريق ما يزال - كما سبقت الإشارة قبل قليل - يحتفظ بكل أبعاد الحاضر ومفاتيح المستقبل ، اذا جاز لنا أن نؤكد ذلك كحقيقة بديهية بالنسبة لأفريقيا فان الأمر قد اختلف كثيرا بالنسبة لأمريكا اللاتينية ، حيث بدأت قصة هذا الغزو والسيطرة الاستعمارية مع مجتمعاتها الأصلية في القرن السادس عشر والسابع عشر بعملية تسطيح مجتمع بأسره ، مننقا ومجنوب عبر المحيط الاطلنطي على أنقاض مجتمع تم تدميره حتى العمق حضاريا وبشريا على نحو ما سبقت الإشارة لتنتهي هذه القضية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بميلاد مجتمع هجين مشبع بكل خصائص المجتمع الاقطاعي والرأسمالي الأوربي ، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا ، خصوصا ما يتعلق بالجانب العسكري والادارة الكولونيالية الاوربية التي تشبعت بها الادارة الاستعمارية القديمة في هذه المنطقة أكثر من أية منطقة أخرى ، وطبعت أوضاعها السياسية والاقتصادية بهذا الطابع الكولونيالي حتى اليوم .

كما أنه بفضل النظر عما لحق بتلك المجتمعات الأصلية من دمار حقيقي فان ثلاثة قرون مليئة بالديناميكية والحركة الاجتماعية المعاصرة والواعية هي كافية لخلق مجتمع مستقر وشبه متكامل من المستوطنين الأوربيين وبعض المحليين ، هو أكثر عقلانية وديناميكية حديثة اذا ما قورن بالمجتمعات

الآسيوية والأفريقية ، الا أن مشكلة هذه المجتمعات الأساسية هي أن مراكز « المتروبول » فى أوربا قديما والولايات المتحدة حديثا قد كانت وما تزال تنظر الى هذه المجتمعات وتعاملها كمجرد تابع مكملة لها اقتصاديا وسياسيا،

بل وتفرض عليها ذلك فرضا ما استطاعت الى ذلك سبيلا حتى الآن . وفى ضوء مجمل هذه الظروف لنا أن نتصور أو نفترض كيفية نشأة وتطور فئة مثقفة فى هذه المجتمعات ، ذات خصائص تميزها عن غيرها من فئات مثقفي أفريقيا وآسيا الذين سبق الحديث عنهم . فإذا استرجعنا مجمل التحليلات السابقة حول طبيعة وكيفية الظروف الاجتماعية والتاريخية التى تكونت من خلالها مجتمعات أمريكا اللاتينية الحديثة فأننا نستطيع القول بأن فئة المثقفين المعاصرين فى هذه المجتمعات قد أنبثقت فى غالبيتها من فئات وطبقات المجتمع الجديد « المهجن » ولم تتوفر قنوات أو نقاط عبور للمجتمع الأصيل القديم لكى يشارك فى تكوين هذه الفئة بصفة خاصة وفى مجمل مكونات الحياة العامة الجديدة بصفة عامة الا فى حدود ضيقة للغاية .

وحينما حصلت هذه المجتمعات على استقلالها السياسى المبكر خلال القرن التاسع عشر لم تواجه الفئات السياسية المثقفة التى تنصدر دائما مثل هذه الأحداث مشاكل حادة فى اطار التكوين الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع المسطح أو « المهجن » الذين يمثلونه بمختلف فئاته وطبقاته ، ولم يضطروا الى الوقوع فى حالات التآزم السياسية والقومية التى وقع فيها المثقفون فى المجتمعات الآسيوية وبعض المجتمعات الأفريقية ، ولا التآزم الثقافى والاقتصادى الذى يمكن اضافته الى ما سبق بالنسبة لامثالهم فى عموم القارة الأفريقية قبيل وبعد الاستقلال . بل لقد كانوا على خلاف ذلك هم أكثر تكيفا وتكاملا مع أوضاعهم الطبقية وارتباطا بها منذ البدايات ، ولم يودى شعار المطالبة بالاستقلال والحصول عليه الى انتشار حالات من الارتباك الشديد فى الواقع الاقتصادى والطبقى والاجتماعى بصفة عامة على نحو ما حدث فى آسيا وأفريقيا والذى أعكس بعمق على أوضاع فئة المثقفين فى هذه القارات ، حيث وجد هذا الارتباك تعبيره المباشرة من خلالهم ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها :

(أ) ان طبقات المجتمع الجديد الذى فرض نفسه على أنقاض المجتمع القديم فى أمريكا اللاتينية بنمطها القطاعى والبرجوازي كانت هى أكثر ديناميكية ووعيا بمتغيرات العصر وعقلانيته ، بحكم أصولها القومية « المعقلنة » القادمة من أوربا والمشبعة بالتطلعات السياسية والاقتصادية والعلمية المختلفة ، الأمر الذى حال أو حد على الأصح من ظهور فئة المثقفين كفئة أكثر علما وعقلانية ووعيا بالنسبة لأصولهم الطبقية بمسافات لا تدرك على نحو ما

حدث فى آسيا وأفريقيا ، حيث كان يحتل من يجيد القراءة والكتابة مركزاً مرموقاً وأكبر من حجمه بكثير بين ألاف الأميين من أبناء طبقته أو مجتمعه ككل ، الأمر الذى أدى الى الحد نسبياً من غرور هذه الفئة فى أمريكا اللاتينية وجنوبها الى حد ما الوقوع فيما وقعت فيه مثيلاتها فى آسيا وأفريقيا وبحدود نسبية طبعاً . حيث ظل الوعي الطبقي سياسياً واقتصادياً هو صمام الأمن الى حد ما فى حياة هذه الفئة .

(ب) ان الاستقلال الذى حصلت عليه هذه المجتمعات لم يكن استقلالاً اجتماعياً وقومياً ، بمعنى استقلال مجتمع من سيطرة مجتمع آخر أو أمة من سيطرة أمة وقومية أخرى ، بحيث يقتضى استئثاره وحفز المشاعر القومية والنضالية من خلالها للحصول على مثل هذا الاستقلال ، وحيث يجد المثقفون عادة فرصتهم الذهبية لتصدر الأحداث وتحريكها ، كما حدث فى معظم بلدان آسيا وشرق وشمال أفريقيا ، بل لقد كان استقلال مجتمعات أمريكا اللاتينية من السيطرة الأوربية هو أشبه ما يكون بالاستقلال الذاتى من الإدارة والتبعية المركزية فى نطاق الأمة الواحدة ، مع الاحتفاظ بكل المكونات الاجتماعية والثقافية والسياسية ، الأمر الذى قلل من أهمية دور فئة المثقفين فى مسألة النضال من أجل الاستقلال والحصول عليه . وكانت أهميته أكبر بالنسبة للطبقات الاقطاعية والبرجوازية ومؤسساتها السياسية والاقتصادية التى خفت تبعيتها وخضوعها للإشراف والرقابة المباشرة لمراكز الامبراطوريات الاستعمارية فى أوروبا .

(ج) ان العاملين الأساسيين السابقين قد أديا الى قوة ارتباط المثقفين بطبقاتهم الاجتماعية بحكم الانحدار الاجتماعى والانتماء السياسى فى الغالب الأعم ، الأمر الذى عزز مواقع هذه الطبقات وفكرها ومصالحها وتناقضاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضاً ، وقيام المثقفين فى هذه المنطقة من البلدان النامية أو ما صار يعرف ببلدان العالم الثالث بمهمة هى أقرب الى طبيعتهم ودورهم التاريخى الصحيح كادوات تعبيرية عن كل المصالح الطبقيه المتناقضة فى المجتمع بأصدق ما يكون التعبير كما يقول لينين ، اذا ما قورنوا بأمثالهم فى آسيا وأفريقيا حتى الآن . وهو الأمر الذى يفسر لنا أيضاً بأمثالهم فى آسيا وأفريقيا حتى الآن . وهو الأمر الذى يفسر لنا أيضاً تأسيس بها المجتمع منذ زمن طويل ، كما يفسر لنا فى الوقت نفسه دلالة النضج المتقدم والوعي للطبقات العاملة وتماسكها وتنامي فاعليتها السياسية والاجتماعية والنضالية فى المراحل الأخيرة ، اذا ما قورنت بغيرها فى آسيا وأفريقيا ، وربما تستطيع كل الدلالات السابقة أيضاً أن تفسر لنا كل مؤشرات النمو الاقتصادى والاجتماعى التى تتقدم بها هذه المجتمعات اذا ما قورنت بمثيلاتها فى آسيا وأفريقيا أيضاً .